

2007-2008

المصل الأول

شبه الماديين المنكرين لأصل النبوات والرد عليهم

ويشتمل على :

المبحث الأول : شبه المنكرين للنبوات منذ عهد سيدنا نوح إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والرد عليهم.

المبحث الثانى : شبه البراهمة والرد عليهم.

المبحث الثالث: شبه المنكرين للنبوات فى الفلسفة الحديثة والرد عليهم.

تمهيد:

فى هذا الفصل نتعرض لشبه الماديين المنكرين لأصل النبوات، المستبعدين أن يكون من البشر رسلاً أوحى الله إليهم تبليغ رسالته للناس، وقد قسّمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

تناول منكرى النبوات منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتنى هذا المبحث بجمع الشبهات كلها فى أصول واحدة كاستبعاد المنكرين رسالة البشر وطلبهم أن يكون من الملائكة. تتبعنا شبهاتهم كما حكاها القرآن الكريم، ثم ردنا عليها، ونفس الشئ فعل فى وصف المنكرين للرسول بالسحر والجنون، فقد جمعنا أقوال المكذبين ثم فندناها، بما ورد فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية، مستأنسين بأقوال العلماء وفهومهم.

أما المبحث الثانى:

فقد خُصص لمنكرى النبوات من البراهمة، الذين اشتهر عنهم ذلك ومن خلال البحث تبين أن هناك اتجاهًا يذهب إلى أن البراهمة لم يتحدثوا عن النبوات سلباً أو إيجاباً، وكان هذا الاتجاه سبباً فى أن نبحت عن جذور المسألة، خاصة وأن هناك إجماع من العلماء على أن البراهمة أنكروا النبوات، وتبين لنا أن هناك بعض الملحدّين ظهروا فى المجتمع الإسلامى، وأنكروا النبوة، ولكنهم نسبوا الشبهات التى أثاروها فى إنكار النبوة إلى البراهمة وتناقل العلماء شبه الملحدّين على أنها شبه للبراهمة وقد ذكرنا شخصيتين من الملحدّين هما "ابن الراوندى، وأبو بكر الرازى الطيب"، وقارنا بين ما قالوه من شبه حول النبوة وما نسب إلى البراهمة فتبين صدق ما انتهينا إليه، خاصة إذا علمنا أن شبهاً كثيرة من التى نسبت إلى البراهمة تدور حول

شرائع الإسلام، ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا دليلاً آخر على أن أصحاب تلك الشبه هم الملحدون في المجتمع الإسلامي.

المبحث الثالث:

يدور حول إنكار النبوة في الفلسفة الحديثة، وتدور شبه الفلاسفة المحدثين حول إنكار كل ما لا يقع تحت الحس والمشاهدة، وهؤلاء هم الفلاسفة الماديون، وقد رددنا عليهم بإثبات إمكانية الوحي في الفكر الإسلامي وإمكانيته من خلال العلم التجريبي، وهناك فريق آخر من الفلاسفة يعترفون بالألوهية، ولكنهم ينكرون النبوات زعمًا منهم أن العقل يكفي لضبط سير الفرد والمجتمع، ورددنا على هؤلاء بعدم كفاية العقل واستقلاله في كثير من المسائل، وهذه الأمور هي التي يأتي الأنبياء بها

وختمنا هذا المبحث بتعقيب أوضحنا فيه الأسباب التي أدت إلى إنكار الماديين للنبوة في العصر الحديث.

المبحث الأول

المنكرون للنبوات منذ عهد سيدنا نوح إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الشبهة الأولى : استبعاد منكرى النبوة بشرية الرسل

اتفق المنكرون للنبوات على اختلاف أزمتهم وأستهم وأمكتهم على إنكار النبوة بناء على حجة واهية تمثلت فى استبعاد أن يكون الرسول من البشر، وطلبوا أن يكون من الملائكة، قال ذلك قوم نوح، يحكى القرآن الكريم ذلك عنهم فى قوله تعالى ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾^(١)

وكرر ذلك قوم صالح ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَنفَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آيَاتٍ ﴿٢٠﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢١﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُبِئْنَا بِفُرْهِينَ ﴿٢٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَنفَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿٢٥﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿^(٣)

وقوم شعيب ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٤) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَنفَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ • أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٢١﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ

(١) سورة المؤمنون الآية (٢٤)، وانظر: الآيات (٦٩) وما بعدها من سورة الأعراف.

(٢) سورة الشعراء الآية (١٤١ - ١٥٤)..

مُفْسِدِينَ ﴿٣٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَبِيلَةَ الْأُولِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٦﴾ استبعاداً منهم أن يؤمنوا لبشر مثلهم ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأَنْكَرُوا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾^(١)

وقالها فرعون وملئه عن موسى وهارون عليهما السلام ﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾^(٢)

ويردد نفس الادعاء كفار قريش فيقولون كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَعَلَّا يُنظَرُونَ﴾^(٣)

وقد تكرر طلب كفار مكة من الرسول أن يأتي بالملائكة معه يقول تعالى ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤)، وقد تكرر هذا من كفار مكة كثيراً وحكاه عنهم القرآن الكريم^(٥)

ويجمع الله شبه الأولين والآخرين من مكذبي الرسل فيقول تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٦)

وتفرعت بعض الاعتراضات من المكذبين بناء على كون الرسل من البشر.. من هذه الاعتراضات:

أ: كون الرسل تأكل الطعام كسائر الناس:

وقد اعترض بهذه الشبهة قوم هود، يقول تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

(١) سورة الشعراء الآية (١٧٦، ١٨٦) ..

(٢) سورة المؤمنون الآية (٣٤).

(٣) سورة المؤمنون الآية (٤٧).

(٤) سورة الأنعام الآية (٨).

(٥) سورة الحجر الآية (٧).

(٦) سورة هود الآية (١٢)، والإسراء الآية (٩٣)، والفرقان الآية (٢١).

(٧) سورة الإسراء الآية (٩٤).

يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١١﴾

وكررها المكيون اعتراضاً على الرسول صلى الله عليه وسلم، يحكى القرآن عنهم ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾^(١)

ب: أن الرسل لا مال لهم وأتباعهم من الفقراء:

وهذه الشبهة جادل بها المكذوبون رسلهم من أول سيدنا نوح إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يحكى القرآن الكريم عن قوم نوح ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ آتِيْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرُّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾^(٢)

وكررها فرعون لموسى عليه السلام يحكى القرآن ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ يَبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾^(٣)

وردد تلك الشبهة كفار مكة للرسول صلى الله عليه وسلم .. يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٤)

ويصور مقالتهم فى قوله تعالى ﴿ أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي ﴾^(٥)

بل إن كفار مكة اشترطوا لكى يؤمنوا بالرسول أن يجعل لهم يوماً وللفقراء يوماً، ولما هم الرسول بذلك نزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

(١) سورة المؤمنون الآية (٣٣ - ٣٤).

(٢) سورة الفرقان الآية (٧).

(٣) سورة هود الآية (٢٧)، والشعراء الآية (١١).

(٤) سورة الزخرف الآية (٥١ - ٥٣) وسورة المؤمنون الآية (٤٥ - ٤٧).

(٥) سورة الزخرف الآية (٣١).

(٦) سورة ص الآية (٨).

بِالْغَدْوَةِ وَالْعَيْشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

ج: وصف الرسل بالسحر والجنون:

وهذه الشبهة ردها الكفار مع رسلهم.. فقوم نوح وصفوه بالضلال والجنون، يقول تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١١﴾ وكررها قوم هود له.

ووصف فرعون موسى عليه السلام بالجنون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿١٢﴾

ووصفه تارة أخرى بالسحر، يقول تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿١٣﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿١٤﴾

وأكثر كفار مكة من وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون وقول الشعر يقول تعالى ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿١٥﴾

ويقول تعالى ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾

ويقول سبحانه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِمَاءِ رَبِّ الْمُنُونِ ﴿١٧﴾

(١) سورة الأنعام الآية (٥٢) وانظر: لباب المنقول في أسباب النزول للسيوطي ص: ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) سورة القمر الآية (٩) وسورة الأعراف الآية (٥٠ - ٦٤).

(٣) سورة الشعراء الآية (٢٧).

(٤) سورة طه الآية (٦٢ - ٦٣).

(٥) سورة القلم الآية (٥١) وسورة الطور الآية (٢٩) وسورة الحجر الآية (٦).

(٦) سورة الأنبياء الآية (٣).

(٧) سورة الطور الآية (٣٠).

وأخيراً يجمع الله شبه المتقدمين والمتأخرين في وصف المكذبين لرسولهم بالسحر والجنون فيقول تعالى ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ ﴾^(١)

كانت هذه المقولات هي بعض الشبه التي حالت بين الكفار وبين الإيمان مستبعدين أن يَمنَ الله على رجل من البشر بالرسالة.
الرد على تلك الشبه:

تناول القرآن الكريم الرد على تلك الشبه وسوف نتبع طريقة القرآن الكريم في ذلك مبتدئين بالآتي:

[١] استعالة أن يكون الرسول ملكاً:

لقد رد القرآن الكريم على شبه المنكرين للنبوات استبعاداً منهم أن يرسل الله بشراً، وبين الله عز وجل أنه لا وجه للاعتراض ولا للعجب حين يرسل الله رسولاً من البشر لأن ذلك هو المناسب لهم ليقع التصديق، لأنه لو كان من غير جنسهم ما استطاعوا أن يفاهموا معه، ولذلك فإن الله عز وجل يقول: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَشِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾^(٢) أى ما كان لهم أن يتعجبوا من ذلك، وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه:

الأول: أنه تعالى مالك الملك والذي يملك له الأمر والنهى والإذن والمنع ولا بد من إيصال تلك التكليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد وإذا كان الأمر هكذا.. كان إرسال الرسول أمراً غير ممتنع، بل كان مجوزاً فى العقول.

الثانى: أن إرسال الرسل أمر لم تخل أمة منه كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾^(٣)

فكيف يتعجب منه ، مع أنه قد سبقه النظر.

الثالث: أنه تعالى إنما أرسل إليهم رجلاً وعرفوا نسبه وعرفوا كونه أميناً بعيداً عن أنواع التهم والأكاذيب ملازماً للصدق والعفاف.

(١) سورة الذاريات الآية (٥٢).

(٢) سورة يونس الآية (٢).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٧).

الرابع: أن هذا التعجب كان موجوداً عند بعثة كل رسول كما فى قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(١) ﴿وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(٢) إلى قوله تعالى ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾^(٣) وهذا التعجب من إرسال الرسل من البشر كان موجوداً عند المكذبين على اختلاف أزمتههم وأمكتهم.

يقول الشهر ستانى: "وقع النزاع بين الرسل وبين قومهم فى أن الرسالة لا تتصور من البشر"^(٤).

ولذلك يقول سبحانه ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٥)

وإذا كان المكذبون للرسل قد تعجبوا واستبعدوا أن يرسل الله رسولاً من البشر.. فقد طلبوا أن يكون الرسول من الملائكة أو ينزل مع الرسول ملكاً، وقد بين القرآن الكريم أن طلبهم محال. يقول تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾^(٦) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ﴾^(٧) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٨)

إن الله عز وجل بين استحالة نزول الملك لأمر منها:

أ - أن إنزال الملك على البشر آية باهرة فبتقدير نزوله فربما لم يؤمنوا وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال كما جرت سنة الله مع السابقين، ولذلك لم ينزل الله إليهم الملك لثلا يستحقوا العذاب.

ب - أن نزول الملك على صورته الحقيقية لا يتحملة البشر، ومن ثم فهم لا يطيقون نزوله لأنهم إذا شاهدوه زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون وبيان

(١) سورة الأعراف الآية (٦٥ - ٦٩).

(٢) سورة الأعراف (٧٣)،

(٣) سورة الأعراف الآية (٦٩)، وانظر الكشاف للزحشرى (٢/٢٢٤)، والتفسير الكبير للرازى (١٦/٥، ٦).

(٤) نهاية الأقدام للشهر ستانى (ص ٤٢٨) بتصرف.

(٥) سورة الإسراء الآية (٩٤).

(٦) سورة الأنعام الآية (٨ - ١٠).

ذلك أن الآدمى إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر.

فإن كان الأول - فإن الآدمى لا يبقى حياً - ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى جبريل غشى عليه.

وإذا كان الثانى - فإن المرئى يكون شخصاً على صورة البشر - كأضياف إبراهيم وحينئذ يقول المكذبون إنه رجل وليس بملك فيعود سؤالهم ولذا قال سبحانه ﴿وَلَلْبَسْتَنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسونَ﴾^(١)

ج: إن ظهور الملك لن يقضى على شبهات المكذبين ولكنه سيفتح شبهات أخرى لديهم، لأن أى معجزة تظهر على يديه يقولون هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والفعل لفعلنا مثل ما فعلته^(٢).

وقد بين الإمام الرازى الحكمة فى إنزال الملك فى صورة البشر وذلك لأن الجنس إلى الجنس أميل.

وأن البشر لا تطبق رؤية الملك.

ولأن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم فى الإقدام على المعاصى، وكذلك لأن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكاً أو بشراً^(٣).

[٢] بشرية الرسول تتفق مع الحكمة من إرسال الرسل:

لا شك أن بعث الرسل من البشر فيه نوع من اليسر ورفع الحرج عن الناس لأن الجنس إلى الجنس أميل وأنه يتكلم بلغتهم كما فى قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾^(٤)، ثم إن الرسول بطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان فى المأكل والمشرب والبيع والشراء وسائر أمور البشر.

(١) سورة الأنعام الآية (٩).

(٢) انظر: الكشاف (٦/٢، ٧) والتفسير الكبير (١٢/١٦١، ١٦٢).

(٣) التفسير الكبير للرازى (١٢/١٦٢).

(٤) انظر: الكشاف (٦/٢، ٧) والتفسير الكبير (١٢/١٦١، ١٦٢).

ويشاكل الملائكة بطرف الرسالة فيسبح ويقدم مثلهم ويكون في قرب من ربه ويشغل كل كيانه بطاعة الله بدنًا وروحًا وقلبًا والمشاكله يتحقق بسببها منافع كثيرة منها المخاطبة وإدراك ما في نفوسهم ورجباتهم.

ويقول الشهرستاني: إن الرسل "لهم طرفان بشرية ورسالة، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾".

فبطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان ويشاركه فيأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويحيا ويموت، وبطرف الرسالة يشاكل نوع الملائكة ويشاركه فيسبح ويقدم ويبت عند ربه يطعمه ويسقيه وتنام عيناه ولا ينام قلبه ويموت قلبه ولا تموت روحه" (١).

ومن ثم جعل الله الإعجاز في كون الرسل من البشر حال كونهم يأتون بما يأتون ويفعلون إذ لو كانوا ملائكة لقالوا لو كانوا بشراً ما استطاعوا أن يفعلوا من الكمالات النفسية والطاعات وغيرها، والرسل إنما بعثوا ليقنطروا بهم ويأنس الناس بأحوالهم في العقائد والتشريعات والأخلاق ولو كانت الرسل من الملائكة ما تحققت هذه الفوائد الكثيرة (٢).

[٣] الطعام والشراب لا يتنافى مع النبوة:

أما رفض المنكرين للنبوات لرسولهم لأنهم يأكلون ويشربون مثلهم فإن الله عز وجل قضت حكمته أن يكون الأنبياء جميعاً من الرجال وما داموا من جنس الناس فلا بد لهم من الطعام والشراب والبيع والشراء وسائر الأمور التي يحتاجون إليها في معاشهم.

ولذلك فإن رفض المشركين لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا معنى لها، فهم حين اعترضوا عليه لأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كان رد القرآن الكريم عليهم أن محمداً ليس بدعاً من الرسل فهو كسائر إخوانه من الأنبياء ولما كان بينهم

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ٤٢٩).

(٢) انظر: النبوات للرازي (ص ١٤٨ - ١٥٠)، والنبوة والأنبياء للصابوني (١٩ - ٢١).

وبين أهل الكتاب مودة أحالهم إليهم، يقول سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

ويقول تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣).

ويقول سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٤).

وهذه الآيات تقرر أموراً منها:

١- أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لا يرسل رسولاَ إلا من البشر، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى إلى أن ختم بالرسالات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وطعن كفار مكة بهذا السؤال الركيك طعن قديم فلا يلتفت إليه.

٢- أن الله لقن مشركي مكة ليسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنما أحالهم عليهم لأن أهل الكتاب كانوا يشايعون المشركين في معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يكاذبونهم فيما هم فيه رداءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن اليهود والنصارى لا يبد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها.

٣- أن الله ما دام قد أحال نزول الملك من السماء ليكون رسولاَ واقتضت حكمته أن يكون الرسول من البشر، فإنه نفى عنه ما يكون للملائكة، فإذا كانوا هم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يبيعون ولا يشترون فإن الرسل الذين اصطفاهم الله من البشر يفعلون ذلك، ويفارقون الحياة كما يفارقها سائر البشر، هكذا كان الأنبياء

(١) سورة النحل الآية (٤٣).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٧-٩).

(٣) سورة الفرقان الآية (٢٠).

وعلى قمتهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذى كان يأكل ويشرب، ويعاشر زوجاته، وينام ويستيقظ، ومع ذلك كان أكمل نموذج لحياة الإنسان على وجه الأرض بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة^(١).

٤. ثم إن الطعام والشراب يرتبط به كثير من ثمار الرسالة من حيث أسباب الكسب، وطرائق الأكل والشرب وحاجة البدن إلى ذلك وتنظيم تلك الحاجة.

يذكر الإمام القرطبي فى قوله تعالى "وما أرسلنا قبلك من المرسلين" أن هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة، فإن الله تعالى أخبر فى كتابه عن أصفياه ورسله وأنبياه بالأسباب والاحتراف فقال عن داود: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾^(٢).

وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون، وفى أموالهم يعملون ومن خالفهم من الكفار يقاتلون وطريقهم فيه الهدى والاهتداء، ثم إن القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين الذى انعقد عليه إجماع المسلمين، وقد خاطب الله موسى بقوله ﴿أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ﴾^(٣). وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب العصا، وكذلك مريم عليها السلام ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ﴾^(٤)، وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان أو تجاب دعوته أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسه أو لأجل غيره ولا تُهدد القواعد الكلية والأمور الجلية^(٥).

[٤] الرد على عدم بعثة الأنبياء من الأغنياء:

من الشبه التى تدرع بها المنكرون للنبوات كون الأنبياء لا مال لهم ولا جاه ومن ثم كانوا يستكثرون أن يرسل الله إليهم رسلاً من الفقراء.. لقد تكرر هذا مع نوح

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (٢٠ / ٣٦) وانظر الكشاف للزمخشري (٢ / ٥٦٣ - ٥٦٤)، وانظر فى ظلال القرآن الكريم (٤ / ٢٣٦٨ - ٢٣٦٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٨٠).

(٣) سورة الشعراء الآية (٦٣)

(٤) سورة مريم الآية (٢٥)

(٥) انظر: تفسير القرطبي (١٦ / ١٤ / ١٣).

عليه السلام ومع صالح عليه السلام ومع هود ومع موسى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونلاحظ في ردود القرآن الكريم على أصحاب تلك الشبهة وصفهم بالجهل لأنهم لا ينظرون إلا إلى المحسوسات وتقتصر أبصارهم وعقولهم أن يرتقوا إلى الأسباب المعنوية من الصلاح والشرف والفضل الذي يمن الله به على من يشاء من عباده، ومن هذا المنطلق كان رد القرآن الكريم على المكذبين من قوم نوح، فحين اعترض قوم نوح على كونه من البشر وأن أتباعه من الفقراء كان قول نوح كما حكاه القرآن الكريم ﴿ قَالَ يَنْقَوْمِرْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْذِبَاتٍ وَأَشْرَتْنَا لَهَا كِرَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَنْقَوْمِرْ لَآ أَسْفَلَكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أُجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُونَ بِيَوْمِ لَيْلِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَنْقَوْمِرْ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾^(١).

وقد أدحض القرآن الكريم في هذه الآيات شبهاتهم التي تتكرر مع الأنبياء باستمرار:

١- أما قولهم "ما نراك إلا بشراً مثلنا" فهذا جهل منهم لأن الرسول إنما يباشر مهمته المكلف بها بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لا الصورة والخلقة، وقد تبين استحالة نزول الملك على البشر وكأن نوحاً عليه السلام يقول لهم إن حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة.

٢- لقد بين نوح عليه السلام أنه لا يطلب على تبليغ الدعوة والرسالة مالا، ولذلك فهو لا ينظر إلى حالة أتباعه من الفقر أو الغنى، فكانه عليه السلام قال لهم إنكم نظرتم إلى ظواهر الأمور فوجدتموني فقيراً وظننتم أني ما اشتغلت بهذه الحرفة

(١) سورة هود الآيات (٢٨-٣١).

إلا لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم، وهذا الظن منكم خطأ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، لأن أجرى عند الله الذي يشينى فى الآخرة.

٣- إن قوم نوح نظروا إلى الأسباب الدنيوية ومن ثم فقد استردلوا المؤمنين لفقدهم وذلك بسبب جهلهم فهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشرف عندهم من له جاه وسلطان، وغاب عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحداً من الله ولا يرفعه، فضلاً أن يجعله سبباً فى الاختيار للنبوّة والتأهيل لها على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين فى الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها، فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنًا فى النبوّة والرسالة^(١)؟

وقوم نوح نموذج متكرر باستمرار، فقد تكرر من فرعون وملئه مع موسى عليه السلام، وكانت الحجة الواهية فى رفض فرعون لنبوّة موسى أنه لا يملك شيئاً، بينما فرعون له ملك مصر، وهى شبهة دائماً يحتج بها الجهال، ولذلك لا يلتفت إليها، ولا يبالى بها، لأن فرعون بنى شبهته على كثرة ماله وجاهه وسلطانه، وأخذ من ذلك حجة على أنه يجب أن يكون أفضل من موسى عليه السلام، وعلى هذا فيمتنع أن يكون موسى رسولاً من عند الله، وهذه مقدمة فاسدة، وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار مكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢).

لقد تعجب كفار مكة من نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى القرآن عليهم ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾^(٣).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ أَهْمَرِ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ

(١) انظر: الكشف (٢/ ٢٦٤، ٢٦٥)، وانظر: أبو السعود (٣/ ٢٥، ٢٤)، وانظر: التفسير الكبير للرازي (٢١٥-٢١٢/١٧).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢١٥-٢١٢/١٧).

(٣) سورة ص الآية (٨).

بَعْضًا سُخْرِيًّا^١ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْنَا يَظْهَرُونَ ﴿٣١﴾ ﴿١﴾.

فأهل مكة كغيرهم من المكذبين نظروا إلى الاصطفاء بالرسالة على أنه منصب عظيم لا يليق إلا بأحد العظماء من أصحاب الجاه والمال والسلطان، ولقد فند الله شبهتهم ونظرتهم القاصرة من وجوه:

الأول: أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها وهي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدناها هي الخارجية من المال والجاه والسلطان، فالمنكرين لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم عكسوا القضية وظنوا أن أخس المراتب وأدناها هي أشرفها وأعلاها، فلما نظروا ووجدوا المال والجاه والسلطان عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، وهذا من القياس القاصر، ولو أنهم نظروا إلى دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ما قالوا ما قالوه، وهذا دليل على أنهم تركوا النظر والاستدلال.

الثاني: أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون كامل القدرة وعظيم الجود. وهذا لا ينبغي إلا لله سبحانه وتعالى، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة والجود لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب له غنياً أو فقيراً، فذلك مقاييس لا ينظر الله إليها، ثم إنه تعالى لما أوقع التفاوت في مناصب الدنيا لا لسبب سابق فلماذا يستبعد عليه أن يوقع التفاوت بين الناس في منصب النبوة.

الثالث: أن الله هو الذى يقسم الأرزاق بين الناس، لأن له ملك السموات والأرض، ولا يملك أحد منهم تغيير واقع الناس وتفاوتهم فيما بينهم فى الغنى والفقر، وذلك مشاهد وإذا كانوا عاجزين عن هذا، فعجزهم أظهر أن يرتقوا فى الأسباب ويصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون.

الرابع: أن الله وصفهم بالجهل، وتعجب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها والمتولين لقسمة رحمة

(١) سورة الزخرف الآيات (٣٠، ٣٣).

الله التي لا يتولاها إلا هو بياهر قدرته وبالغ حكمته وضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خاصة أمرهم، وما يصلحهم في دنياهم، وأن الله هو الذي قسم معيشتهم وقدرها، ودبر أحوالهم، ولو تركهم لأنفسهم وولاهم تدبير أمورهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك في تدبير أمور الدين، الذي هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى، وهم حين نصبوا أنفسهم مدبرين لأمر النبوة، فهذا جهل منهم لأن الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون^(١).

الخامس: أن الأنبياء وإن اتصف بعضهم بالفقر وعدم الملك الواسع إلا أنهم كانوا من ذوى الأعراق فى النسب، وهو الأمر الهام الذى يجب أن يتوافر فى الذين يصطفهم الله لهذا الأمر، ولهذا لم يوجه إلى واحد منهم طعناً فى نسبه وأصله، غير أنه يجب أن نشير إلى أن الأنبياء لم يكونوا جميعاً فقراء، بل كان منهم الغنى مثل داود وسليمان وأيوب، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيراً، بل كان يملك ويتصدق بما يملكه، فهو يملك ويوجد بما عنده ثم يملك وينفق وهكذا.

لقد تبين لنا أن منطق المكذبين للأنبياء واحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى عهده وبعد عهده، فهم لا ينظرون إلى الدعوة وسموها ولا ينظرون إلى صاحبها وصدقه وشرفه، ولكن المقياس عندهم من هو؟ وكم يملك؟ ولقد عبر القرآن الكريم عن مسلك المتقدمين والمتأخرين فى رفضهم للأنبياء فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٢) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾^(٣)

وقال عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾^(٤) * قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٥)

(١) انظر الكشاف للزمخشري (٣/٢٦١-٢٦٢، ٤٨٥-٤٨٦) والتفسير الكبير للرازي (٢٦/١٧٩-١٨٠)، (٢٠٩/٧).

(٢) سورة سبأ الآية (٣٤، ٣٥).

(٣) سورة الزخرف الآيات (٢٣، ٢٤).

إن المترفين الذين أترفهم النعمة وأبطرتهم لا يجيئون إلا الشهوات والملاهي، ويغضون تحمل المشاق في طلب الحق. إن موقفهم قصة معادة وموقف مكرور على مر الدهور، إنه الترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها، فلا ترى الهداية، وخص المترفين بالذكر لأن المترفين تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويفرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ومن ثم قيل إن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة^(١).

[٥] النبوة اصطفااء:

إن المكذبين للأنبياء حين يعترضون على الرسل بأنهم من البشر يبين الله أن الرسالة اصطفااء وهبة لا دخل للبشر فيها.

يقول تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٢).

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾^(٣).

ويقول سبحانه ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٤).

ويقول عز وجل ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٥).

(١) انظر : الكشاف (٤٨٤/٣)، والتفسير الكبير (٢٠٦/٢٧)، وفي ظلال القرآن (٢٩١٠/٥).

(٢) سورة الحج الآية (٧٥).

(٣) سورة آل عمران الآية (٣٣).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٢٤).

(٥) سورة إبراهيم الآية (١١).

وهذه الآيات جميعها تقرر أموراً هامة في اصطفاء الله تعالى من خلقه عبداً يكونوا رسلاً بينه وبين خلقه، وبين الاصطفاء على علم الله وحده، فهو جل جلاله أعلم بفضة العقل ورجاحته، وقوة النفس وصفائها وشدة الإرادة والعزم، وقوة الصبر والتحمل، والطلاقة في اللفظ والمنطق وكلها أمور يحتاج إليها النبي. وقد ذكر العلماء وجوهاً كثيرة توافرت في الذين اصطفاهم الله منها:

١- أن الأنبياء عليهم السلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية والقوى الروحانية، وقد كان أنبياء الله متميزين عن غيرهم بالقوى الجسمانية كقوى الأبصار ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان مخصوصاً بكمال هذه الصفة، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها"، وإبراهيم عليه السلام أيضاً قد تميز بهذه الصفة الجسمانية، فلقد قوى الله بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى إلى الأسفل.

وكذلك كان الأنبياء متميزين بقوى السماع، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع أطيظ السماء، ونظير هذا ما حدث لسيدنا سليمان فقد أسمع الله كلام النمل، ومنها قوة الشم كما فى حق يعقوب عليه السلام فقد أحس بريح يوسف من مسيرة أيام، ومنها قوة الذوق كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حين قال "إن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة". هذا فى القوى الظاهرة.

أما القوى الباطنة فمنها قوة الحفظ كما فى قوله تعالى ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى ﴾^(١).

٢- ولقد تميز الأنبياء عن غيرهم فى القوى الروحانية العقلية، فقد خصهم الله بالنفوس الزكية، وأيدهم بالقوى القدسية، وجعل نفوسهم مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم نفوسهم الكمال فى الذكاء والفضة، والحرية، والاستعلاء، والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح فى غاية الصفاء والشرف، وكان البدن فى غاية النقاء والطهارة، وكان الفاعل القابل فى غاية الكمال، ومن ثم كانت الآثار فى غاية القوة والشرف والصفاء^(٢).

(١) سورة الأعلى (٦) وانظر التفسير الكبير للرازي (٢٣/٨، ٢٢).

(٢) التفسير الكبير للرازي (٢٣/٨).

٣- إن الله كما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة، ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر وطيب الأخلاق، وكرم الأعراق، ويرقيهم مرتبة مرتبة، حتى إذا بلغ الواحد منهم أشده وبلغ أربعين سنة، وكملت قوته النفسانية، وتهيات لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً، فكانوا يتلقون من جانب، ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه^(١).

٤- إن الاصطفاء للرسالة منة وعطية من الله، ولذلك لما اعترض المكذبون على الرسل بأنهم بشر مثلهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيَّ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وهذا ما يعرف بمجازاة الخصم ليعثر فإن الرسل سلموا لهم بأنهم بشر والمعنى ما ادعيتهم من كوننا بشر حق لا ننكره ولكن هذا لا ينافي أن يمين الله علينا بالرسالة^(٣).

يذكر الرازي أن هذه الآية استنبط منها حكماء الإسلام أن الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواص شريفة وعلوية قدسية، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له.

وأما أهل السنة والجماعة فقد ذهبوا إلى أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية، واحتجوا بقوله تعالى ولكن الله يمين على من يشاء من عباده، وأجاب الحكماء أن الانبياء لم يذكروا فضائلهم النفسية والجسدية تواضعاً منهم^(٤).

(١) نهاية الإقدام (ص ٤٦٣) وأبو السعود (٤/ ٣٤).

(٢) سورة إبراهيم الآية (١١).

(٣) الإتيان في علوم القرآن (٢/ ١٣٧).

(٤) التفسير الكبير للرازي (١٩/ ٩٦).

والذى يميل إليه الباحث أن الله علم صفاء نفوس هؤلاء البشر واستعدادهم للخير فأصطفاهم وهذا يظهر جلياً فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أنه قبل البعثة كان يتحنث فى غار حراء ولم يهتم بشيء مما كان يفعله أهل الجاهلية.

[٦] الرد على اتهام الرسل بالسحر والجنون:

إن المنكرين للرسل على اختلاف أزمتههم وأمكنتهم قد وصفوا الرسل بالسحر أو الجنون كما ذكر ذلك القرآن الكريم ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾^(١).

والشئ الذى يلفت النظر هو : لماذا تُهتَمَى السحر والجنون بالذات؟

إن الأسباب التى جعلتهم يرمون الأنبياء بالسحر والجنون تتلخص فى عدم فهمهم استيعاب الوحي بالطرق الإدراكية كالحس والعقل ، لأن إتيان الرسل بأمر يعجز العقل عن الوصول إليها جعل المنكرين يلجأون إلى تفسير ما يأتى به النبى بالسحر وجعلهم فى الوقت ذاته يتهمون النبى بالجنون وأنه يتخيل أموراً لا تخضع لمنطق الحس والعقل.

وقد صاغ هذه الأسباب ابن تيمية فى قوله "إنه ما جاء نبى صادق قط إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون ، وذلك لأن الرسول يأتى بما يخالف عاداتهم ويفعل ما يرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعاً ، وهذا فعل المجنون ، فإن المجنون فاسد العلم والقصد ، ومن كان مبلغه من العلم إرادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك وطلب ما لا يعلمه مجنوناً ، ثم إن النبى مع هذا يأتى بأمر خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب وأمور خارقة لعاداتهم فيقولون هو ساحر"^(٢).

ودعوى المكذبين للأنبياء لا دليل عليها ، لأن الله اصطفى الأنبياء على خلقه جميعاً ، وحاشا لله أن يختار نبياً فيه صفة منفرة^(٣) ، فضلاً عن السحر والجنون ،

(١) سورة الذاريات الآية (٥٢).

(٢) النبوان لابن تيمية (ص ٢٧٠).

(٣) انظر "نهاية الأقدام للشهر ستانى (ص ٤٤٤ ، ٤٤٥) ومطالع الأنظار على طوابع الأنوار (ص ٤٣١ ،

ولكن حين يعجز المنكرون عن تقديم حجة واضحة لرفض الحق الذي جاء به الأنبياء، بصفات منفرة ليحيلوا بينهم وبين المدعويين. وغالباً ما يكون المكذبون من أصحاب السلطان والجاه، ولهم الكلمة النافذة التي تؤثر عادة في الناس، لما يملكون من وسائل شتى للتأثير.

ولعل ما حدث مع سيدنا موسى عليه السلام من فرعون وقومه مع السحرة قبل وبعد أن يؤمنوا خير دليل على ما نقول. فقد وصف فرعون موسى بالجنون تارة، وبالسحر تارة أخرى. ويأتى الوصف بإحدى هاتين الصفتين بعد العجز الكامل من فرعون وقومه أمام موسى ومنطقه الواضح.

لقد وصف فرعون موسى عليه السلام بالجنون بعد أن أسمعه موسى ما لم يسمعه من قبل، يقول تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿١﴾

إن سؤال فرعون ليس عن ماهية الرب، ولكنه سؤال استفهام استنكارى، كأنه استنكر أن يكون للعالمين رباً سواه، ومن ثم فسّر موسى العالمين بأنها السموات والأرض وما بينهما، ليحسم مادة التزوير لثلاث العالمين على ما تحت مملكته، فلما غاظته هذه الإجابة المؤكدة من موسى بأنه رب العالمين، وصف موسى بأنه مجنون ليس له عقل فيما يدعو إليه، وذلك ليصرف الناس عن دعواه وضمن الوصف بالسخرية أن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، سماه رسولاً بطريق الاستهزاء وأضافه إلى المخاطبين ترفعاً من أن يكون مرسلأ إليه ^(٢).

ونلاحظ أن وصف فرعون لموسى كان صرفاً فقط للناس عن سماعه وليس وراء ذلك اعتقاد لدى فرعون بأنه مجنون على الحقيقة، وإلا لما واصل الاستماع وطلب من موسى أن يأتى بآية إن كان من الصادقين.

(١) سورة الشعراء الآيات (٢٣ - ٢٩).

(٢) انظر: ابن كثير (٣/٢٣٣، ٢٣٢)، والكشاف (٣/١٠٨، ١٠٩)، وأبو السعود (٣/١٥٩).

أما الوصف الثانى لموسى بأنه ساحر وأن معجزته ما هى إلا ضرب من السحر، فقد جاء بعد عجزه أن يفهم طبيعة المعجزة، وأن البشر لا يمكن أن يأتوا بمثلها، ولذلك لما جاء السحرة أمام فرعون وغلبوا وآمنوا، لم يقتنع فرعون ولكنه ضم السحرة إلى موسى فى مؤامرة مزعومة حسب زعمه.. يقول الله سبحانه ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٠٤﴾ قَالُوا يَمْؤُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٠٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ فغلبوا هنالك وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٠٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٢﴾ ١

إن السحرة قد اكتشفوا وتأكدوا أن الذى جاء به موسى عليه السلام ليس من جنس السحر الذى يعلمونه ويشغلون به، ولذلك آمنوا إيماناً جازماً، وهذا دليل على صدق دعوى موسى عليه السلام ٢.

يقول صاحب المواقف : "إن المعجز يظهر فى كل زمان من جنس ما يغلب على أهله ويبلغون فيه الغاية القصوى فيقفون فيه على الحد المعتاد، حتى إذا شاهدوا ماهو خارج عن حد الصناعة علموا أنه من عند الله وذلك كالسحر فى زمن موسى، ولما علم السحرة أن حد السحر تخييل وتوهيم ثم رأوا عصاه انقلبت ثعباناً يتلقف سحرهم الذى كانوا يافكونه علموا أنه خارج عن حد السحر، فأمنوا به، وفرعون لقصوره كان يظن أنه كبيرهم الذى علمهم السحر" ٣.

ولو كان الذى أتى به موسى سحراً ما آمن به السحرة، لأنهم قد بلغوا مبلغاً كبيراً فى حقيقة السحر واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى عليه السلام خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية لا من جنس

(١) سورة الأعراف الآيات (١١٣-١٢٢)

(٢) النبوات لابن تيمية (ص ٢١).

(٣) المواقف (ص ٣٥٤).

التمويهات البشرية، ولو أنهم كانوا يقولون لعله أكمل منا فى علم السحر فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين فى السحر، فلأجل كمالهم فى ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان^(١). وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمساوا شهداء^(٢).

فإذا ما انتقلنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه قد وُصف من قومه بالجنون وقول الشعر، ولقد نفى الله عز وجل ذلك كله، لأن ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم من الوحي ينفى عنه كل اتهام، وإذا كان ساحراً فهل الساحر يعجز عن أن يسحر من أمامه؟ كلا، فوجود أهل مكة واتهامهم للرسول بالسحر ينفى عنه أنه ساحر، وأما اتهامهم للرسول بقول الشعر فحجة عليهم لا لهم، لأن جزيرة العرب مليئة بالشعراء، فلم لم يأت واحد منهم بمثل ما جاء به الرسول؟ ولذلك فإن القرآن الكريم ينفى كل هذه الاتهامات عن النبي فيقول سبحانه ﴿وَمَا عَلَّمَهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ^(٣)﴾. ويقول ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ^(٤)﴾.

ثم يبين الفرق بين الشاعر والكاهن وبين النبي فى قوله سبحانه وتعالى ﴿هَلْ أَنْبَيْكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ ﴿١٥﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٦﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿١٧﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١٩﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

فالفرق واضح بين الكهان الذين يتلقون من الشياطين الكذب والبهتان وبين كلام محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا يكذب أبداً، والفرق واضح أيضاً بين كلام الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون وبين دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الذى يتحمل بسببها كل المشاق والآلام، ومع ذلك لم يتركها حتى بعد أن عرض عليه

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٠٦/١٤).

(٢) الكشف للزحشى (١١٣/٣).

(٣) سورة يس الآية (٦٩).

(٤) سورة الطور الآية (٢٩).

(٥) سورة الشعراء الآيات (٢٢١-٢٢٦).

أهل مكة المال والجاه والسلطان، فمنهج الرسول غير منهج الكهان وغير منهج الشعراء^(١).

هذا النفي من الله تعالى يظهر إلى أى حد كان أهل مكة يفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن الرسول ليس بساحر ولا كاهن ولا شاعر ولا مجنون.

فقد أورد ابن كثير فى تفسيره وابن هشام فى سيرته: أن عتبة بن ربيعة فاوض الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليه المال والسيادة، والمملك، حتى إذا فرغ عتبة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسمع منى قال " افعل فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه" ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد. قال: ورائى أنى قد سمعت قوله، والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأى فى فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(٢).

فهذا اعتراف من أحد صنائيد الكفر يعلن أمام قريش وهم الذين أرسلوه ليتفاوض مع النبى صلى الله عليه وسلم أن محمداً ليس بساحر ولا بكاهن ولا

(١) ظلال القرآن (٥/٢٢٦٠، ٢٢٦١).

(٢) السيرة النبوة لابن هشام (١/٢٩٢، ٢٩٣) وابن كثير (٤/٩١).

بشاعر وتكرر هذا الموقف كثيراً من المشركين إلا أن البعض منهم كان يتراجع تحت التأثير الاجتماعي ويصف الرسول بما يصفه به الكفار كالوليد بن المغيرة الذي أثنى على القرآن الكريم وانتهى أنه خبر أشعار العرب ونفث السحر وعقده، وعلم سجع الكهان، وهذيان المجانين، فما قول محمد صلى الله عليه وسلم بواحد منها، ولكنه نكص على عقبيه تحت ضغط المشركين وقال ما حكاه القرآن الكريم عنه في سورة المدثر ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٦﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٧﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٨﴾ ﴾^(١).

ووصف الرسول بالسحر والجنون وقول الشعر ليس عن اعتقاد داخلي يقيني منهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الأوصاف، وإنما قال مشركو مكة هذا حقاً وحسباً و صرفاً للناس عن أن يستمعوا إلى الرسول، وهم أول من يعترفون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأ من هذه الأوصاف، وقد كانوا معترفين بذلك إذا خلو ببعضهم كما حدث لكثير من المشركين مثل الأحنس ابن شريق وخلافه.

الفرق بين النبي والساحر والكاهن:

وقد أورد الإمام ابن تيمية أكثر من عشرة وجوه للفرق بين النبي والساحر والكاهن والشاعر، نذكر منها :

١- أن ما يخبر به الأنبياء لا بد وأن يكون صدقاً وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهنة فإنه لا بد فيه من الكذب.

٢- أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا الحق وأما هؤلاء فلا بد لهم من الظلم.

٣- أن آيات الأنبياء ولو قدر أنها تنال بالاكسباب فهي إنما تنال بالعبادة والطاعة، أما ما يأتي به السحرة والكهان فإن الخوارق تحصل لهم مع الكذب والإثم.

(١) سورة المدثر الآيات (١٨ - ٢٥).

- ٤- إن ما يأتي به الأنبياء ليس مقدوراً لأحد من الإنس والجن. أما ما يأتي به السحرة والمشركون لا يخرج عن كونه مقدوراً للإنس والجن.
- ٥- أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده والعمل على طاعته، وأما السحرة والكهان فكلهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون بما جاء به الأنبياء^(١).

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (ص ٢٧٩- ٢٨٣) بتصرف.

الشبهة الثانية

التشدد والتعنت في طلب الآيات والمعجزات الحسية

لقد سيطر على المنكرين للنبوات الاتجاه المادى، وذلك أثناء حديثهم مع الرسل، وكان هذا الاتجاه عاماً في الأمم قبل أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واحتلت المطالب المادية من كفار مكة مكاناً كبيراً من تعنتهم ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، وسوف نعرض لثلاثة نماذج مما طلبه المنكرون من أنبيائهم مؤكدين أن طلب المعجزة لم يكن بهدف التصديق لو تحققت، وإنما كان تعنتاً وعناداً واستكباراً من المكذبين لأنبيائهم وعلى امتداد تاريخ الرسل لم نجد قوماً نجوا من العذاب إلا القليل بعد تخصيص ما يريدون مما يدل على أن المعجزة تأتي عندما يكون الأنبياء "قد فرغوا من محاولات شتى للإعلان عن دعوتهم وللإقناع العقلى والتذكير والموعظة والإنذار، ولما لم تؤت هذه الطرق نتائجها الواسعة أو تعسف المدعوون فى إنكارهم أو طلبوا آية إعجازية، فإن الداعية من الرسل يضطر لتقديمها"^(١) إذا أراد الله ذلك.

والدليل على ذلك النماذج التى نعرضها:

أولاً: صالح عليه السلام مع قومه:

لقد أرسل الله نبيه صالحاً إلى ثمود وكما هى طريقة الأنبياء فإنه دعاهم إلى عبادة الله وحده وذكرهم بنعمه عليهم، ولكنهم أعرضوا عنه، وطلبوا منه إن كان من الصادقين أن يأتيهم بآية.

وقد عرض القرآن الكريم قصة صالح مع قومه فى كثير من الآيات^(٢).

(١) الدعوة والإنسان (ص ٣٩٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (٧٤ - ٧٩)، سورة هود الآية (٦١ - ٦٨)، سورة الحجر الآية (٨٠ - ٨٤)، سورة الشعراء الآية (١٤١ - ١٥٩)، سورة النمل الآية (٤٥ - ٥٣) وسورة فصلت الآية (١٧ - ١٨)، وسورة الذاريات الآية (٤٣ - ٤٥)، وسورة النجم الآية (٥٠ - ٥١)، وسورة القمر (٢٣ - ٣٢) وسورة الحاقة الآية (٤، ٥)، وسورة الشمس الآية (١١ - ١٥).

ويظهر من كثرة حديث القرآن الكريم عن قوم صالح مدى تعنتهم واستكبارهم، وسوف نكتفى بعرض شبهتهم ورد القرآن الكريم عليها في سورتي الأعراف والشعراء.

يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٦٤﴾ وَسَأَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آخِرٍ إِن آخِرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا ههنا ءَامِنِينَ ﴿٦٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلْجٍ طَلْعَهَا هَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿٦٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٧٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٧٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾^(١)

لقد طلبوا آية ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه من الإيمان بالله وحده والتذكير بنعم الله عليهم.

ويروى المفسرون أن قوم صالح طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ عليهم المواثيق والعهود أنه إن فعل ذلك وحقق لهم ما يطلبون أن يؤمنوا، فأعطوه العهود والمواثيق على ذلك فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت الصخرة كما تتمخض الحامل ثم انفرجت خرجت الناقة من وسطها، وقد ذكر القرآن الكريم أن هذه الناقة وكونها آية من آيات الله على الناس أن يعلموا أنها من عند الله.

يقول تعالى ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ أَنْ

(١) سورة الشعراء الآيات (١٤٧١ - ١٥٤).

صَلِّحَا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾ قَالَ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ ﴿٧٤﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا لَا يَنْصَلِحُ اتِّبَاعَنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٥﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٦﴾^(١)

وقد ذكر العلماء كون الناقة آية من آيات الله وذلك لأنها كان لها شرب يوم معلوم وكان القوم كلهم يشربون في يوم وكانت تحلب لهم اللبن في اليوم الذي لا يشربون فيه الماء، وكأنها كانت تصب اللبن صباً، وكل هذه الأشياء تجعلها آية من آيات الله، وكما يقول الرازي "اعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية فأما ذكر أنها كانت آية من أى الوجوه فهو غير مذكور والحاصل أنها كانت معجزة من وجه لا محالة"^(٢).

وبعد أن ظهرت الناقة هل آمن قوم صالح؟ إن فريقاً من قوم صالح قد آمن، لكن الأغلبية كانت من المستكبرين، عَتَوْا عن أمر ربهم وعقروا الناقة التي تُهَوِّا عن أن يسوها بسوء، مجرد سوء فضلاً عن ذبحها وأصروا على ظلمهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، وهنا بعد تلك المعجزة الحسية لم يمهلمهم الله فترة طويلة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَمْرٍ مَّكَذُوبٍ ﴿٧٦﴾﴾^(٣)، وهذه المدة لم تكن للاستتابة، وإنما كانت زيادة في ألم العذاب والضغط النفسى الشديد الحاصل بسبب الوعيد بالعذاب، وقد كان^(٤).

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٧٧﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ ﴿٧٩﴾﴾^(٥).

(١) سورة الأعراف الآيات (٧٣ - ٧٩).

(٢) التفسير الكبير الرازي (١٤/١٦٣)، وانظر ص (١٦١ - ١٦٤).

(٣) سورة هود الآية (٦٥).

(٤) الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠).

(٥) سورة هود الآية (٦٦ - ٦٧) - وانظر فى هلاكهم الأعراف الآية (٧٧) والحجر الآية (٨٣ - ٨٤) والشعراء

الآية (١٥٨ - ١٥٩)، والنحل الآية (٥١ - ٥٣) وفصلت الآية (١٧)، والذاريات الآية (٤٤ - ٤٥)، والقمر

الآية (٣١ - ٣٢) الحاقة الآية (٥٩).

إن قوم صالح نموذج للمعاندين الذين يطلبون الآيات الحسية، وبالرغم من أن تلك الآيات تحدث دويًا ضخماً في خرقها للعادة كناقاة صالح إلا أنها لا تزيدهم إلا تكدياً وطغياناً، وهذا هو شأن المنكرين حتى بعد أن يروا الآيات.

ثانياً: موسى عليه السلام مع فرعون وملئه:

المعروف أن طبيعة دعوة موسى عليه السلام استدلالية إعجازية ولكنها تهتم بالمعجزة في الإقناع إلى حد كبير^(١)، وكان الله يعلم طبيعة فرعون وقومه ولهذا جاءت دعوة موسى على هذا النحو، ولكن لا ينبغي أن نفهم من هذا أن موسى عليه السلام يسارع بتقديم المعجزة في أول دعوته، كلا، إن القرآن الكريم يبين لنا أن موسى عليه السلام ما عرض الآية التي أيده الله بها إلا بعد أن استفرغ جهده في تقديم الأدلة إلى فرعون على أنه موحي إليه من رب العالمين، حتى ليشعرنا القرآن أن الإصرار على طلب الآية كان من فرعون بعد أن لمح موسى إلى ما معه.

ولنعرض هذه الآيات من سورة الشعراء: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٩﴾ قَالَ فَاتِّبِعْ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤١﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٤٢﴾ ۞ ﴿٤٣﴾

والملاحظ من الآيات أن موسى بدأ بالاستدلال المقنع ولما تأكد له عدم صبر فرعون على هذا اللون الاستدلالي وظهر له أن فرعون سيستخدم القوة التي لا قبل لموسى بها، لجأ إلى الإعجاز كعنصر مسكت لفرعون ومبهر له في الوقت نفسه^(٢)، ولكن الله عز وجل أظهر فرعون شأنه كشأن المكذبين من قبله طالباً المعجزة^(٤) قال فاتت به إن كنت من الصادقين" وبعد أن ظهرت الآية على يد موسى عليه السلام ماذا

(١) الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠).

(٢) سورة الشعراء الآيات (٢٣ - ٣٣)

(٣) انظر بتصرف: الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠).

(٤) انظر سورة الأعراف الآيات (١٠٦ - ١٢٦).

كان الموقف؟ الإصرار والعناد والاستكبار وعدم الإيمان، حتى السحرة الذين جاء بهم فرعون من كل فج لما آمنوا بموسى كان العقاب من جانب فرعون موجهًا للمؤمنين، لا فرق بين سحرة ولا إسرائيليين، بل أكثر من ذلك لما ابتلاههم الله عز وجل بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ماذا قالوا؟

يحكى القرآن عنهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلْتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٨﴾ فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ فَاعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴿١﴾

إنهم فى كل مرة كانوا ينقضون عهدهم ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رفع العذاب عنهم، لقد جمع الله الآيات كلها كأنما جاءتهم مرة واحدة وكأنما وقت النكث مرة واحدة، ذلك أن التجارب كانت كلها واحدة وكانت نهايتها واحدة^(١).

وكان فرعون وقومه مثال يضربه القرآن الكريم لكل الماديين الذين يطلبون الآيات المشاهدة كشرط للإيمان، يعرض القرآن الكريم الآيات التى جاء بها موسى إلى فرعون كما يقول الله تعالى ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴿٢﴾

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٤٠﴾ ﴿٤﴾

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَلْتَىٰ ﴿١٤١﴾ ﴿٥﴾

(١) سورة الأعراف الآيات (١٣٣ - ١٣٦).

(٢) انظر فى ظلال القرآن الكريم (٣ / ١٣٥٨ ، ١٣٥٩).

(٣) سورة الزخرف الآية (٤٨).

(٤) سورة الإسراء الآية (١٠١).

(٥) سورة طه الآية (٥٦).

ويقول عز وجل ﴿ فَالْمَا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

ويقول ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ ﴾ (٢)

كل هذه الآيات الحسية المشاهدة ما زادتهم إلا نفوراً وعلواً واستكباراً، ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن الذين يطلبون المعجزات الحسية ليسوا بمؤمنين ولا بمصدقين وهم في طلبهم للآيات الحسية كأنما يطلبون العذاب من الله ويستعجلونه.

ثالثاً: طلب المشركين المعجزات الحسية من النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد غالى أهل مكة في طلب المعجزات الحسية من الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصل بهم الغلو أن طلبوا إن كان الرسول صادقاً والقرآن حقاً أن ينزل الله بهم العذاب، وكانوا من السفاهة بحيث لم يطلبوا كما طلب اليهود من موسى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها، أو يطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم كما طلب الحواريون من عيسى مائدة من السماء.. كلا. لم يطلبوا طعاماً أو شرباً وإنما طلبوا حجارة من السماء أو عذاباً أليماً كما حكى القرآن الكريم عنهم ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣)

لقد طلبوا مطالب متعددة معظمها ينحصر في مطالب مادية، ومتع حسية منها:

أ- طلب الجنات والقصور:

يقول الله تعالى مصوراً مطالب كفار مكة: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٤٧﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا

(١) سورة النمل الآية (١٣ - ١٤).

(٢) سورة القصص الآية (٣٦) وانظر سورة الزخرف الآية (٤٧، ٤٨).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٢)

تَفْجِيرًا ﴿٣٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلِلِّهِ وَالْمَلَكِ كَيْبَلًا ﴿٣٧﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾.

والجواب على هذه الشبهة من جهتين:

الجهة الأولى:

جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه الجهة فيها يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم أنه بشر ومن جهة بشرته فهو لا يملك أن يأتي بشيء، يقول تعالى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٨﴾^(١).

وفي هذا بيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك شيئاً إلا بمشيئة الله فهو نذير والرسول كلهم هذا شأنهم.

يقول تعالى ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَئِن كُنَّا لَنَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِمْ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾^(٢).

والمعنى أن الأنبياء جاءوا إلى أممهم ورسول الله واحد منهم بآيات أيدهم الله بها وهي كافية وحجة قاطعة على صدقهم، أما ما يطلبه أقوام الأنبياء فهي أمور زائدة إن شاء أظهرها تفضلاً ومنه، وإن شاء منعها فالأمر بداية ونهاية لله وحده، ولذلك قال الرسول تعقيماً على تعنت أهل مكة سبحانه ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً^(٣).

يقول الدكتور "دراز": لقد أسىء فهم الرسل حين نظر إليهم على أنهم صناع معجزات، إن القرآن لا يرى في المعجزة عملاً بشرياً إنما المعجزة تتم بقدره الله وليس

(١) سورة الأعراف / الآية ١٨٨

(٢) انظر: لباب المنقول في أسباب النزول (ص ٢١٤ - ٢١٨)، بهامش تفسير الجلالين.

(٣) سورة إبراهيم الآية (١١).

(٤) انظر: الرازي (٩٧/١٩) والقرطبي (٣٤٧، ٣٤٨/٩) وأصول الدين للبغدادي (ص ١٧٧، ١٧٦).

لهؤلاء الرسل أكثر مما لدى قومهم من حق فى ادعاء اختيار المعجزات أو استبدالها بغيرها، إن الله عز وجل يعطى سلطانه لمن يشاء وعلى أى شكل يريد بحسب تقديره سبحانه لأوفق طريقة تناسب هذه العصر أو ذاك^(١).

الجهة الثانية:

جهة الله عز وجل، إن الله سبحانه وتعالى يرد على المشركين ويسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُوزًا ﴾ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ ﴿^(٢).

أى أن الله قادر على أن يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً مما طلبوه، ويبين أنهم لم يطلبوا ذلك من أجل الإيمان، ولكن تكديباً وتعتناً، وإن عدم إيمانهم بيوم القيامة هو الذى يجعلهم يتجرأون على الله وعليك، ولذا فإن الساعة موعدهم يذوقون السعير فيها^(٣)، والقرآن الكريم لا يلبى طلبهم لأن الله يعلم أن المعجزة الحسية إذا ظهرت فلن يصدقوا^(٤)، ولذلك فمن الأولى ألا تظهر.

ب: طلب تحول الجبال ذهباً:

تعنت أهل مكة فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً فقد أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا بم جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين وأتوا النصرارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً فدعا ربه فنزلت الآية ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ فليتكروا فيها^(٥). فليس مجرد أن يطلبوا يحقق الله مرادهم لأنه الأعلم بما

(١) مدخل إلى القرآن (ص ٨١، ٨٠).

(٢) سورة الفرقان الآية (١٠، ١١).

(٣) انظر ابن كثير (٣/٣١٠).

(٤) الأسس المنهجية (ص ٦٨، ٦٩).

(٥) لباب المنقول فى أسباب النزول (ص ١٠١) بهامش الجلالين.

تحدثه تلك المعجزات فى نفوسهم ، إنهم قد صمموا على عدم الإيمان ومهما ظهرت لهم من المعجزات الحسية فلن يزيدهم إلا إصراراً وعناداً.

وقوع المعجزات على يد الرسول صلى الله عليه وسلم يزيد المكذبين عناداً:

ونحن حين نعرض لمواقف المشركين وتعتتهم فى طلب المعجزات الحسية وعدم استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، نود أن نوضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهرت على يديه معجزات أحدثت دويماً كبيراً ، منها على سبيل المثال

انشاق القمر الذى سميت فى القرآن الكريم باسمه ، يقول سبحانه: ﴿ أَفَكَّرْتِ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ ۗ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۗ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۗ ﴾^(١).

وقد أورد البخارى حديث انشقاق القمر فى روايات متعددة منها رواية ابن مسعود قال: "انشق القمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا"^(٢).

ووردت روايات انشقاق القمر من طريق أبى معمر عن عبد الله ومن طرق عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس ومن طريق عن أنس^(٣) ، وهى روايات مؤكدة تفيد بأن القمر انشق بالفعل لا كما ذهب البعض إلى أن القمر سينشق ، لأن المفسرين بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق الذى رواه جمع من الصحابة^(٤).

وهذه المعجزة التى تميز بها رسول الله عن غيره من الأنبياء ، إذ كانت معجزاتهم كلها أرضية وهى شاهد صدق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن القرآن قد نزل بها" ولو لم يقع ذلك لقال له أعداؤه متى كان هذا؟

هى معجزة سماوية وكانت المعجزات من قبله أرضية"^(٥).

(١) سورة القمر الآيات (١-٣).

(٢) فتح البارى (٥٠٠/٨).

(٣) فتح البارى (٥٠١/٨).

(٤) التفسير الكبير للرازى (٢٨/٢٩).

(٥) أصول الدين للبغدادى (١٨٢).

إن المشركين كان عليهم أن يفكروا جيداً في هذه المعجزة التي لو حدثت من البشر لاختل نظام العالم بأسره، ولكن لأن الله تعالى هو الذى شقه لم يحدث أى خلل وعاد والتأم، ومع ذلك كله بعد أن طلبوا من الرسول أن يشق القمر لهم، وتحقق ما طلبوا وكانت النتيجة الإعراض كما هي عادتهم^(١). وزادوا مع الإعراض وصف ما يأتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر المستمر.

وليس انشقاق القمر إلا إحدى المعجزات الحسية الكثيرة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم مثل: نبع الماء من بين أصابعه وذلك أعجب من خروج الماء من الحجر لموسى عليه السلام، ومنها تسييح الحصى فى يده، ومنها مجيء الشجرة بأمره ورجوعها، ومنها حنين الجذع، ومنها كلام الضب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهادته أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وهذه المعجزات " وإن لم يتواتر كل واحد منها فالقدر المشترك بينها متواتر لأن مجموع الرواة بلغوا حد التواتر والقدر المشترك متحقق فى رواية المجموع فيكون متواتراً"^(٣).

ويُعد القرآن الكريم هو المعجزة الباقية ولم يثبت أن أحداً عارضه لأنه لو عورض لتواتر سيما والخصوم أكثر من حصى البطحاء وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه^(٤).

ولكن مع هذه المعجزات الباهرة لم يقتنع الذين طلبوها مما يجعلنا نذهب إلى أن المعجزة لا تهدى من لم تكن له هداية من بصيرته واستقامه تفكيره، فمن مرت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر إليها ولم يعرف منها ديناً خيراً من دين الوثنية والتعطيل، فلن تزيده الآية الخارقة إلا ضلالاً على ضلال^(٥).

وسنين الأسباب الحقيقية لإنكار المكذبين للأنبياء، فى التعقيب التالى.

(١) الدعوة والإنسان (٤٠٤ ، ٤٠٥) والتفسير الكبير للرازي (٢٩ / ٢٨ ، ٢٩).

(٢) أصول الدين للبغدادي (ص ١٨٢)، وانظر نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ٤١٩ ، ٤٢٠)، وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهاني (ص ٣٢٠-٣٢٤).

(٣) مطالع الأنظار شرح طوابع الأنوار للبيضاوى (ص ٤٢٣ ، ٤٢٤).

(٤) المواقب (٤٣٩ ، ٤٤٠).

(٥) التفكير فريضة إسلامية (ص ٨٨).

تعقيب

الأسباب التي أدت إلى إنكار المكذبين

بعد ظهور المعجزات على يد الأنبياء والمرسلين

بعد عرضنا لتعنت المنكرين للنبوات وطلبهم المعجزات الحسية نلاحظ الآتى:

(١) أن المنكرين حين طلبوا الآيات من الأنبياء كان ذلك على سبيل التعجيز لهم من ناحية أخرى أنهم كانوا يتتهزون أدنى خلل يحدث فى تحقيق ما يطلبون من الآيات ليأخذوا ذلك على الأنبياء، وكان الله دائماً يقف مع أنبيائه ورسله فيما يؤيدهم به من آيات.

(٢) على الرغم من الشطط فى الطلب إلا أن كثيراً من الأنبياء قد استجابوا لمطالب أقوامهم إما طمعاً فى إيمانهم أو تأييداً لرسالتهم حتى لا يقال إنهم عجزوا عن مطلب إعجازى كان من الممكن أن يؤدي إلى إيمان أقوامهم،

(٣) أن الغالب على الأقوام الإصرار على الإنكار بعد ظهور المعجزات كما حدث مع قوم سيدنا صالح ومع موسى عليه السلام من فرعون وملئه إذا استثنينا السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، كما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فبالرغم من انشقاق القمر فإن الذين طلبوا انشقاقه لم يؤمنوا.

(٤) أن القرآن الكريم قد بين أن طلب المكذبين للآيات هو من باب العناد والاستكبار.

يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرْتَهُمْ مَجْهَلُونَ ﴾^(١). ويقول سبحانه ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٠﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١١﴾ ﴾^(٢).

إن القرآن الكريم يعرض نموذجاً بشرياً للمكابرة والاستغلاق سواء قبل رسالة خاتم النبيين سيدنا محمد أو فى عهده أو بعده والآيات التي عرضناها مفادها: أن الله

(١) سورة الأنعام الآية (١١١).

(٢) سورة الحجر الآية (١٤، ١٥).

لو حقق للمنكرين ما يطلبون وأنزل إليهم الملائكة بالفعل وأحيا لهم الأموات فكلموهم بصدق النبي المرسل إليهم ما آمنوا إلا أن يشاء الله، أى لن تكون الآيات هى السبب فى إيمانهم.

بل إن القرآن يبين أن الله لو فتح للمكذبين باباً من السماء فخرجوا فيه وشاهدوا الملائكة على طبيعتهم وعبادتهم، لصرف المكذبون وجوههم وقالوا إن السحرة سحرونا، وجعلونا نشاهد هذه الأشياء.

وفى تصوير القرآن للمنكرين على هذا النحو يظهر مدى المكابرة والعناد المتأصل فى نفوسهم فلا جدوى مع هؤلاء، فالذى ينقصهم ليست الدلائل على صدق الرسل، وإنما يمنعهم المكابرة والجحود، وهذه الآيات وإن كانت خاصة بمشركى مكة إلا أنها تصور بوضوح ما كان عليه السابقون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾﴾^(١).

(٥) أشار القرآن الكريم والسنة النبوية إلى أن الحقد والحسد كانا من الأسباب الرئيسة لتكذيب المنكرين للنبوات، فبالنسبة للأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وردت الإشارة إلى فرعون وملئه مع سيدنا موسى عليه السلام.

يقول عز وجل ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾^(٢).

يقول أبو السعود: "مبصرة اسم فاعل أطلق على المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها وإنارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو مبصرة كل من ينظر إليها ويتأمل ولكنهم جحدوا بها وقد استيقنتها" أى علمتها علماً يقينياً، "ظلماً" حيث حطوها عن رتبها العالية وسموها سحراً"^(٣).

(١) سور البقرة الآية (١١٨) وانظر التفسير الكبير للرازى (١٦٧/١٩) وتفسير ابن كثير (١٦٥/٢)، وظلال القرآن (٢١٣٠/٢١٢٩/٤).

(٢) سورة النمل الآية (١٣، ١٤).

(٣) أبو السعود (١٨٩/٣).

وقد مر بنا قول فرعون وقومه عن موسى وهارون ﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾^(١).

أما ما فعله الكفار مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن القرآن وفى شأن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو يؤكد: أن الحسد والحقد كانا من أهم الأسباب التى منعت الكفار من الإيمان بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والنص الذى أورده ابن هشام فى السيرة النبوية يقدم الدلالة على حقد الكفار وحسداهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

يروى ابن هشام فى السيرة أن نفراً من المشركين كانوا يستمعون القرآن كل منهم يجلس فى مكان لا يعلم عنه صاحبه شيئاً وبعد انتهائهم من استماع القرآن الكريم كانوا يتقابلون فى الطريق واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام فى كل مرة يتعاهدون على عدم العودة، وكان هؤلاء نفر أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، وفى آخر مرة كانوا يستمعون القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم ذهب الأخنس بن شريق إلى أبي جهل فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام الأخنس وتركه^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٤).

(١) سورة المؤمنون الآية (٤٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢١٠/١، ٢١١) والبداية والنهاية (٧١/٣).

(٣) سورة البقرة الآية (٦، ٧).

الشبهة الثالثة

زعم الكفار أن القرآن ليس من عند الله

لقد افتري كفار مكة على الله حين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن الكريم من بشر، هذا فضلاً عن وصفهم القرآن بأنه أساطير الأولين، وسوف نعرض طرفاً من هذه الشبهة ونؤجل التفصيلات في الرد عليها عند مناقشة المستشرقين الذين رموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو ما رماه به المشركون خاصة في شأن القرآن الكريم.

يعرض القرآن الكريم شبهة منكرى النبوات في شأن تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن من بشر ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(١).

ويقول سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٢) وَقَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ آكْتَبَهَا فَهَى تَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾^(٣).

ويقول تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٥).

هذا فضلاً عن وصفهم الرسول بما لا يليق به كالسحر والجنون وقول الشعر وكل ما ينفر منه.

الرد على شبهة تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن من بشر

أولاً: الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتعلم القرآن من بشر:

يبين الله عز وجل المغالطة التي يرتكبها المشركون في مقولتهم إذ أنهم حين يزعمون أن الرسول يتلقى القرآن من بشر، لم يتهموا الرسول بأنه يتعلم من أحد الفصحاء البلغاء أرباب البيان، وما أكثرهم في جزيرة العرب، ولكن طمس الله على قلوبهم ورموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يتعلم من غلام أعجمى ليس بعربى.

(١) سورة النحل الآية (١٠٣).

(٢) سورة الفرقان الآية (٤، ٥).

(٣) سورة الطور الآية (٣٣، ٣٤).

يقول ابن هشام: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبير عبد ليني الحضرمي فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمد كثيراً مما يأتي به جبير النصراني غلام بنى الحضرمي فأنزل الله تعالى في قولهم ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١).

وقد تعددت الروايات في تحديد اسم الذي يزعمون أن الرسول تلقى القرآن منه (٢)، وإن العقل لا يصدق كيف أن غلاماً أعجمياً لا يستطيع النطق بالعربية إلا بما يحتاج إليه من كلام في أمور حياته كيف يعلم محمداً القرآن على فصاحته وبلاغته.

وكما يقول ابن كثير: "لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من عقل" (٣).

ولذلك كذبهم الله وبين أن ما يقولونه افتراء على الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٥)﴾ (٤).

وكذبهم واضح من وجوه:

الأول: أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون، ولذلك فكلام العدو لا يؤخذ به.

الثاني: لو صح أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم من هذا الأعجمي فهل التعلم يحصل من جلسة أو جلستين ولكنه يحتاج إلى أعوام طوال، ولو حدث هذا لاشتهر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يشتهر هذا فدل على أنه لم يكن من الأساس تعلم أو تلق من الرسول صلى الله عليه وسلم على يد هذا الأعجمي.

(١) سورة النحل الآية (١٠٣) وانظر ابن هشام (٣٧١/١، ٣٧٢).

(٢) انظر: لباب المنقول (ص ١٩٤) وانظر ابن كثير (٥٨٦/٢، ٥٨٧).

(٣) ابن كثير (٥٨٦/٢).

(٤) سورة النحل الآية (١٠٤، ١٠٥).

الثالث: على فرض أن محمداً تعلم القرآن من هذا الأعجمي، فلم لم يتعلم كفار مكة منه كما تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ويأتوا بمثل القرآن خاصة وقد تحداهم الله بذلك فعجزوا ولجأوا إلى الحرب والقتال^(١).

ومن هنا يتضح الكذب والافتراء من المشركين حين أعجزتهم الحجة فأتوا بمثل هذه الكلمات الركيكة التي تبطل نفسها بنفسها.

لا حجة لأهل مكة في دعواهم أن القرآن يفتره محمد ﷺ:

أما قولهم كما حكى القرآن عنهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾^(٢). فإن الله عز وجل وصف قولهم هذا بالظلم والزور، والظلم فيه واضح وهو جعلهم العربي يتلقى من الأعجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته فصحاء العرب وبلغائه والحق الذي يجب التصديق به وما يوافق العقل ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٣).

أما دعواهم بأن القرآن مفترى فإن الله عز وجل يتحداهم بنفس منطقهم إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفترى القرآن فإن عليهم أن يأتوا بسورة منه، وحين يعجزون فهم الذين يقولون بالإفك والبهتان، يقول تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٤) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٥).

ويقول ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥).

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١١٨/٢، ١١٩)، وانظر الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٥٨٦) وما بعدها.

(٢) سورة الفرقان الآية (٤).

(٣) سورة الفرقان الآية (٦)، وانظر: الكشاف للزمخشري (٨٢/٣)، وانظر: أبو السعود (١٢٠/٣، ١٢١).

(٤) سورة يونس الآية (٣٨، ٣٩).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣).

إن الله عز وجل تحداهم وما زال التحدى قائماً أبداً الدهر وهو أغرب تحدى فى التاريخ كله إذ لم يجرؤ أحد أن يتحدى القرآن فىأتى بسورة مثله ^(١). وهذا التحدى جزء من مراتب متعددة تحداهم الله عز وجل بها.

يقول الرازى : إن مراتب تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن ستة :

أولها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال : ﴿ قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(٢).

وثانيها : أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بعشر سور ، قال تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ﴾ ^(٣).

وثالثها : أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال ﴿ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ ^(٤).

ورابعها : أنه تحداهم بحديث مثله فقال ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ ^(٥).

وخامسها : أن فى تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذ والتعلم ثم فى سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها.

وسادسها : أن فى المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز أن يستعين البعض ببعض فى الإيتان بهذه المعارضة كما قال ﴿ وَادْعُوا مِّنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٦). وهاهنا آخر المراتب ، فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى إثبات أن القرآن معجز.

(١) انظر الأصول الخمسة للفاضى عبد الجبار (ص٥٨٦) وما بعدها ، وانظر : الإسلام يتحدى (ص١٠٨ - ١١٠).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٣) سورة هود / ١٣.

(٤) سور البقرة الآية (٢٣).

(٥) سورة الطور الآية (٣٤).

(٦) سورة هود / ١٣.

المبحث الثاني

البراهمة وإنكارهم النبوات

تمهيد:

البراهمة طائفة فى الهند ينسبون إلى "برهما" أو "برهمن" (١). الذى حاز الشرف فى العلم والطهارة فى زعمهم وهم يعترفون بالألوهية (٢). ولكنهم يشركون مع الله غيره وقد شاع بين مفكرى الإسلام القدامى إنكار البراهمة للنبوات. وسوف نورد آراء العلماء فى ذلك:

الاتجاه الأول:

يقرر أن البراهمة ينكرون النبوات أصلاً وعلى هذا علماء الكلام وأصحاب كتب الفرق والمقالات، كابن حزم فى الفصل، والشهرستانى فى الملل والنحل، والباقلانى فى التمهيد، والجوينى فى الإرشاد، وابن تيمية فى النبوات وغيرهم كثير (٣)، يذهبون جميعهم إلى أن البراهمة ينكرون النبوات.

الاتجاه الثانى:

نجده عند البيرونى الذى ذهب إلى الهند واختلط بأهلها ودرس أحوالهم وعلومهم ومذاهبهم وهو يشير إلى أن البراهمة "وقع الاستغناء عن الرسل فى باب الشرع والعبادة وإن وقعت الحاجة إليهم فى المصالح البرية" (٤). فالبيرونى لا يرى أن البراهمة أنكروا النبوات أصلاً، وإنما أنكروا أن تأتى الرسل بشرائع لأن العقل كاف فى ذلك، أما المصالح المعاشية فهم لا ينكرون الرسل فيها.

(١) الفلسفة الشرقية (ص ١٠٢).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة (ص ٤٠).

(٣) انظر: الفصل لابن حزم (١/٦٣، ٦٤)، التمهيد للباقلانى (ص ١٣١ - ١٤٣)، والإرشاد للجوينى (ص ٤٠٢ - ٤١٢) وأصول الدين للبيهدادى (١٥٥، ١٥٤)، والعقيدة النظامية (ص ٦٤، ٦٣)، طوابع الأنوار للبيضاوى (ص ١٦٥، ١٦٦)، والأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص ٥٦٣)، ومطالع الأنظار للإصفهاني (ص ٤٢٥ - ٤٢٧) والفرق بين الفرق للبيهدادى (ص ٣٥٥).

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى (ص ٧٥).

الاتجاه الثالث:

لأحد الباحثين المحدثين ويذهب إلى أن "الهندوكية" البراهمة، لا يؤمنون بأن دينهم قد أنزله الله عن طريق الوحي إلى أنبيائه، فهم لا يرون الحاجة إلى ذلك مطلقاً لأن الله يتجسد في الشخصيات الإنسانية لهداية البشرية إلى طريق الرشاد، فلا حاجة إذن إلى وحي من الله ولا إلى الأنبياء، ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد في أى كتاب لهم أو في أسفارهم الدينية أى إشارة في إثبات عقيدة النبوة أو نفيها بل هم في الحقيقة لم يفكروا فيها مطلقاً^(١). ويرد الباحث الإجماع الحاصل عند علماء الكلام من أن البراهمة ينكرون النبوات إلى "أن هذا الإجماع لم يحصل من أربابه بسبب عدم اتصالهم اتصالاً مباشراً بالمذاهب الهندية وكتبها المعتمدة، بل ربما كان اعتماد كل لاحق منهم على سابقه هو مرد ذلك"^(٢).

وبالفعل قد أشار البيروني "إلى عدم الدقة في تصوير آراء أهل الهند، فهو يرى أن كتب المقالات، وما عمل في الآراء والديانات آراء منحولة بعضها عن بعض منقول ومغلوط مخلوط غير مهذب"^(٣).

رأى الباحث:

وأمام هذه الاتجاهات الثلاثة أرى أن البراهمة أنكرت الرسل فيما يتعلق بالشرائع فقط، واكتفوا بأحكام العقل في ذلك، ثم تلقف آراء البراهمة بعض الملحددين في المجتمع الإسلامى طعنوا في الإسلام فتقحوا شبه البراهمة وصاغوها صياغة تشكك المسلمين في دينهم، ولعل هذا هو السبب الحقيقى من وجهة نظرنا في الطعون التى نسبت إلى الشريعة فيما يتعلق بالحج ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة والانحناء فى الركوع والسجود، وهذه الطعون لا تتصور من البراهمة وإنما الذى صاغها بعض الملاحدة فى المجتمع الإسلامى، وقصدوا من وراء ذلك تشكيك المسلمين فى دينهم وشريعتهم التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه

(١) الوحي فى المذاهب المختلفة (١٤٩، ١٥٠) رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة،

(٢) الوحي فى المذاهب المختلفة (ص ١٥٢).

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة (ص ١٤، ١٥).

الشبهات صاغها الملاحدة ثم نسبوها إلى البراهمة وشاعت بين العلماء وتناقلوها على أنها شبه للبراهمة.

نقول هذا نظراً لأن هناك فتنة ظهرت في القرن الثالث الهجري تنكر النبوت وتطعن في القرآن الكريم وسائر معجزات الأنبياء، وقد اشتهر من الملاحدة الذين أنكروا النبوت ابن الراوندى^(١)، وأبو بكر بن الرازي الطيب^(٢).

وبالرجوع إلى ما نسب إليهما نجد أن هناك تشابهاً كبيراً بين ما نقل عنهما وبين شبهات البراهمة التي ذكرها علماء الكلام وردوا عليها، وقد ألفت بعض الكتب في الرد عليهما مثل كتاب الانتصار^(٣). للخياط الذي رد على ابن الراوندى في كتابيه التاج والزمردة، ومثل كتاب أعلام النبوة^(٤). لأبي حاتم الرازي الذي يرد فيه على أبي بكر بن الرازي في طعنه على النبوت.

وقد أورد الدكتور "عبد الرحمن بدوي" في كتابه تاريخ الإلحاد نصوصاً عن ابن الراوندى من كتابه الزمردة الذي ينسب إلى البراهمة، وفيه أنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه وأنه هو الذي يعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، فإذا كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقييح والإيجاب والحظر، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته، إذ قد غنينا بما في العقل عنه والإرسال (أي بعثة الرسل) على هذا الوجه خطأ وإن كان ما يأتي به الرسول بخلاف ما في العقل من التحسين والتقييح والإطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته^(٥).

(١) هو: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته ولكن الأغلب أنه توفي في أخريات القرن الثالث الهجري، اتصل بالمعتزلة ثم خرج عليهم ولازم الملحدين واتصل بهم اتصالاً وثيقاً.

انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٩٥، ٩٤) بتصرف يسير.

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي أحد المشهورين في علم المنطق والهندسة، وألف كتباً كثيرة في صناعة الطب واتحل مذاهب خيئة وتوفي من ستة وعشرين وثلاثمائة وقيل سنة أربع وستين وثلاثمائة. انظر: تاريخ الحكماء للقفطي (ص ٢٧١).

(٣) انظر: الانتصار (ص ٢، ١٥٥، ١٧٢، ١٧٣) لأبي الحسين عبد الرحيم بن عثمان الخياط المعتزلي، تحقيق الدكتور نبرج، طبعة دار قابس.

(٤) رسائل الرازي الفلسفية (ص ٢٩٥).

(٥) تاريخ الإلحاد في الإسلام (ص ٨٠).

هذا الطعن إن صح من ابن الراوندى على الأنبياء جميعاً، فإن هناك طعون على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن ما يقال عن بلاغة القرآن وإعجازه فليس "بالأمر الخارق للعادة لأنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من قبائل العرب أفصح من القبائل كلها وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من بقية تلك القبيلة ويكون واحد من تلك العدة أفصح من سائر أفراد تلك العدة"^(١).

وسوف نرى أن شبه البراهمة التي يرد عليها علماء الكلام لا تخرج عن كلام ابن الراوندى إن صححت نسبته إليه.

أما الرازى الطيب فهو يذهب إلى أن العقل هو الحجة القاطعة، فكل شيء تابع له ولا يكون تابِعاً لشيء، يقول عن العقل "إنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا وبالجملة فإنه الشيء الذى لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين، وإذا كان هذا مقداره ومحلّه وخطره وجلالته فحقيق علينا أن لا نخطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ولا وهو الإمام مأموماً ولا وهو المتبوع تابِعاً بل نرجع فى الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه ونمضيها على إمضائه ونوقفها على إيقافه"^(٢).

هذا النص استنبط منه كثير من الباحثين أنه ينكر فيه النبوة من طرف خفى^(٣)، إلا أن هناك مناظرة تمت بين أبى حاتم الرازى صاحب كتاب أعلام النبوة وبين الرازى الطيب المشار إليه، أوردها المستشرق "كراوس" فى نهاية كتاب "الرسائل الفلسفية" للرازى، وفى هذه المناظرة نجد النص صريحاً من الرازى الطيب فى إنكار النبوة، وسوف نعرض أهم شبهات البراهمة فى إنكار النبوة وهى شبهات مختلطة بين الملحدّين فى المجتمع الإسلامى والبراهمة الآخرين هم الذين نسبت إليهم تلك الشبهة على نحو ما بينا.

(١) تاريخ الإلحاد (ص ٨١)، وانظر إعجاز القرآن للرافعى (ص ٢٠٥-٢٠٨) الطبعة السابعة ١٩٦١ م المكتبة التجارية.

(٢) رسائل فلسفية لى بكر محمد بن زكريا الرازى جمعها وصحها ب. كراوسى ج ١ كلية الآداب سنة ١٩٣٩ م.

(٣) فى الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية (ص ٤٤٧، ٤٤٨).

الشبهة الأولى كفاية العقل عن النبوة

تقوم هذه الشبهة على أن العقل وحده كاف لتصريف أمور البشر لأن الرسل إن جاءت بما تقره العقول ففى العقول الكفاية ولا حاجة إذن للأنبياء، وإن جاء الأنبياء بأمور تخالف العقل فلا يكون مقبولاً أن يكلف الناس بما لا تقبله عقولهم، لأن ذلك خروج عن حد الإنسانية^(١).

وشىء آخر يتعلق بالله على زعمهم إذ أنه لا يجوز فى حكمة الله أن يرسل الرسل إلى من يعلم أنه يكفر به ويشتمه ويرد قوله ويستوجب على ذلك العقاب الأليم^(٢).

الرد على هذه الشبهة:

ينقسم الرد على تلك الشبهة إلى جزءين جزء يتعلق بادعائهم كفاية العقل عن إرسال الرسل، والجزء الثانى يتعلق بالحكمة من إرسال الرسل بعد علم الله بتكذيب أهمهم لهم.

[أ] الجزء الأول: ادعاؤهم كفاية العقل عن الرسل والأنبياء:

إن الرسول إذا جاء بما يوافق العقل فهو بمثابة قيام أدلة عقلية كثيرة على مدلول واحد من أن الدلالة يمكن أن تقع بدليل واحد، فلا يقال إن كثرة الأدلة عبثاً، وذلك لأن تضافر الدواعى الكثيرة من شأنه أن يحدث أثراً لا يحدثه داع منفرد، فلو فرض أن العقول تهتدى وحدها إلى معرفة الله وشكره فماذا يضير أن يتأيد ذلك بداع من قبل الله يكون عوناً لهذه العقول ومؤيداً لها، وهذا الداعى والمؤيد هو النبى^(٣)، فالقول بكفاية العقل إذا أتى الأنبياء بما يوافقه باطل.

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستانى (١٣٧/٤، ١٣٨)، والعقيدة النظامية للجوينى (ص٦٣)، والتمهيد للباقلانى (ص١٤٤، ١٤٥)، والأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص٥٦٣) والإرشاد للجوينى (ص٣٠٣، ٣٠٤)، وطوالع الأنوار للبيضاوى (ص١٦٦، ١٦٥).

(٢) انظر التمهيد للباقلانى (ص١٣٩)، والفصل لابن حزم (١/٦٣، ٦٤).

(٣) انظر: الإرشاد للجوينى (ص٣٠٣، ٣٠٤).

أما ادعاؤكم أن الأنبياء إذا أتت بما يخالف العقل تكون بعثتهم باطلة فذلك بمثابة ما لو تقدم مريض إلى الطبيب يسأله عما يصلح له، فهو على الجملة يعلم أنه يريد ما يشفيه ولكن لا يتعين له ما فيه شفاؤه، والطبيب ينص له على ما يشفيه، وكذلك المبعوث إليهم لا يعلمون ما يصلحهم قبل بعثة النبي، فإذا أرسل نص على الراشد وأوضح مناهج القاصد^(١).

ثم إنه ليس كل ما هو معقول الجنس يجب أن يعقله الإنسان، فالعلم بخصائص الأشياء وماهيات الوجود ما هو معقول الجنس وليس كل إنسان يدركه في الحال.

ويمكن إجمال الوجوه التي تترتب على فوائد البعثة في الآتي:

أولاً: أن الأنبياء يأتون بأشياء لا يمكن أن تدركها العقول ثم هي ضرورية للناس لإصلاح حياتهم وآخرتهم، من هذه الأشياء أمور البعث والحشر وأحوال الجنة والنار وبالجملة ما لا يصل العقل بنفسه إليه تأتي الأنبياء لتوضحه وتبينه للناس.

ثانياً: أن الأنبياء يأتون لتقرير الحجة فيما دل عليه العقل بالاستقلال لينقطع عذر المكلف من كل الوجوه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢).

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنذَلَ وَنُخْزَىٰ﴾^(٣).

وإقامة الحجة على الناس ببعثة الرسل من ثلاثة وجوه:

أ - أن يقولوا إن الله تعالى إنما خلقنا للعبادة فوجب أن يبين لنا ما يريده منا فإن العبادة وإن كان أصل وجوبها في العقل لكن كيفيتها غير معلومة لنا، فبعث الله الرسل لقطع هذا العذر فإنهم إذا بينوا الشرائع مفصلة زالت أعدارهم.

(١) الإرشاد (ص ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) النساء الآية ١٦٥.

(٣) سورة طه الآية ١٣٤.

ب - أن يقولوا إنك ركبنا تركيب سهو وغفلة وسلطت علينا الشياطين فاستهوتنا الأهواء والشهوات فهلا أمددتنا بمن يذكرنا وينبهنا إذا غفلنا؟ فلما تركتنا مع نفوسنا وأهوائنا كان ذلك إغراء لنا على تلك القبائح

ج - أن يقولوا إن عقولنا دلتنا على حسن الإيمان وقبيح الكفر، ولكن لم نعلم بعقولنا أن من فعل القبيح عذب عذاباً خالداً خاصة، ونحن نعلم بالعقل أن في القبيح لذة وليس لك فيه نصرة ونعلم أن من عمل صالحاً استحق ثواباً ونحن نعلم بعقولنا أنه لا منفعة لك في طاعتنا، وهذه الأشياء كلها تطلعنا على أنه لم يكن مجرد العلم بالحسن والقبح داعياً ولا وازعاً، أما بعد أن يرسل الله رسله فإن تلك الأعذار تنقطع.

ثالثاً: أن العقول متفاوتة والكامل نادر والأسرار الإلهية غزيرة جداً فلا بد من معلم يعلم ويرشد، والأنبياء هم الذين اختارهم الله لإرشاد وتعليم الخلق^(١).

الجزء الثاني من الشبهة الأولى: ما هي الحكمة من إرسال الرسل بعد علم الله بتكذيب بعض الناس لهم؟

ب - أما ادعاء البراهمة بأن الله حكيم، ويمتنع عليه أن يرسل رسلاً تكذبهم أمهم، فيرد عليهم بأن الله خلق الناس وعلم أن منهم من يكفر به ويحجده، فهل من الحكمة أن لا يخلقهم بعد علمه أنهم يحجدون وجوده؟ فإن خلقهم بعد علمه يترتب على ذلك أنه لا يكون حكيماً، فإن قالوا استدل بخلق الله أناس كثيرين على الله، نقول: وقد استدل أيضاً على النبوة خلق كثير وصدقوهم، وبعثة الرسول هي إحدى الدلائل التي خلقها الله ليدل بها على معرفته، وتوحيده، فكما جاز أن يخلق الله من يعلم أنه يكذبه ويحجده ويكفر به، أيضاً جاز أن يرسل إلى من يعلم منه تكذيب رسوله، وعلى قولهم يجب أن لا يخلق الله من يعلم أن يحجد نعمه ويلحد في صفاته، وألا يحتج بالعقول وما وضعه من الأدلة فيها على أحد علم أنه يحجدها

(١) انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (ص ٣٦٩، ٤٢٦) والعقيدة النظامية (ص ٦٣)، وانظر بصفة أساسية مطالع الأنظار شرح طوابع الأنوار لليضاوي (ص ٤٢٥ - ٤٢٧) وانظر القرطبي (١٨/٦، ١٩).

ولا يستعملها ، ولا يثيب ما وضح في عقله حسنه ولا يحذر مما حذرًا منه فإن مروا على ذلك تركوا دينهم وإن أبوه نقضوا اعتلالهم^(١).

ثم إن الله سبحانه بخلاف جميع خلقه من جميع الجهات وإذا ثبت هذا وجب أن يكون فعله لا لعله بخلاف جميع أفعال خلقه فلا يقال في شيء من أفعاله تعالى أنه فعل كذا لعله ، وهكذا في الأنبياء لا ينبغي أن يقول أحد لِمَ بعث هذا الرجل ولم يبعث غيره^(٢) . ؟ .

(١) انظر : الفصل لابن حزم (١/٦٣ ، ٦٤) ، التمهيد للبلاقلاني (ص ١٤٢) ، وأصول الدين للبغدادي (ص ١٥٦) .

(٢) الفصل لابن حزم (١/٦٣ ، ٦٤) .

الشبهة الثانية

استقبح الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم

تدور هذه الشبهة حول استقبح بعض الأمور الواردة في الشريعة مثل ذبح الحيوان وإيلامه ، ومنها استنكار العقول للتوجه نحو الكعبة والطواف حولها والسعى ورمى الجمار ، وبالجملة كل الأمور التعبدية التي لا يعقل معناها ، مثل الانحناء في الركوع والانكباب على الوجه في السجود ، ونحو ذلك^(١).

الرد على هذه الشبهة :

أ - أما فيما يتعلق بإيلام الحيوان وذبحه : يرد عليهم بأن الله يهلك الحيوانات ويؤلمهم بأسباب الهلاك من غير جريرة قارفوها ، ويمرض الأطفال الذين لم يفعلوا معصية ولم يقعوا في إثم ، فإن قالوا ذلك فعله الله لحكمة ، قلنا فما الحكمة من فعله لم يبعد كون الأمر به أيضاً حكمة ، فما لم يقبح فعله من الله لم يقبح منه الأمر به.

ب - أما اعتراضهم على تعظيم البيت الحرام فيقال لهم " ما أنكرتم أن يكون ذلك أجمع لحكمة يعلمها الله ، فإن الله إذا علم أن فعل تلك الأمور من عباده فيها صلاح لهم وداع لهم إلى فعل توحيده والثناء عليه بصفاته وما هو أهله وغير ذلك مما ينالون به جزيل ثوابه وأن يكون ذلك بمنزلة ركوب البحر وقطع المسافات الطويلة في طلب الريح أو بذل الإنسان جهده وطاقته في الأمور الصعبة خوفاً من سبع أو ممن يريد أن يقتله^(٢).

أما اعتراضهم حول الانكباب في الركوع والسجود ، فإن الله عز وجل قد يضطر عبده ويفقره ويعريه ويسلب العقول من بعض خلقه مع قدرته أن يكمل عقولهم ،

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١٣٧/٤)، وأصول الدين للبغدادي (ص ١٥٤ ، ١٥٥).

(٢) التمهيد للباقلاني (ص ١٤٣ ، ١٤٤) بتصرف.

فإن قالوا إذا وقع ما ذكرتموه فى أمثال الله تعالى ففیه مصالـح خفیه هو المسـأثر بعلمها ، قلنا فالتزموا مثل ذلك فى الأمر بما استبعدتموه^(١).

وهناك بعض الشبه أثارها البراهمة تتعلق بكون الرسول من البشر وتدور حول عدم إعجاز القرآن .

رأينا عدم ذكرها للاكتفاء بما ذكرناه عند عرضنا لشبه المشركين قبل ذلك إذ أن تلك الشبه قاسم مشترك بين منكرى النبوة فيما يبدو .

(١) الإرشاد للجوينى (ص ٣٠٥ ، ٣٠٦) والتمهيد للباقلانى (ص ١٤٣ ، ١٤٤) ، وانظر تعليقات الدكتور سليمان دنيا على البراهمة فى كتاب فيصل التفرقة للغزالي (ص ١٤٠ ، ١٤١) .

المبحث الثالث

الفلسفة الحديثة إنكار النبوة في

قامت في الفلسفة الحديثة تيارات فلسفية متعددة والذي يهمنا أن نبرز أهم التيارات التي أنكرت الوحي وهي :

(أ) الفلسفة المادية : وهذه الفلسفة تنكر كل ما لا يقع تحت الحس والمشاهدة ابتداءً بالألوهية وانتهاءً بكافة التصورات الغيبية مثل الوحي والجن والشياطين والحياة الآخرة وما فيها.

وقد نشأ في حوض هذه الفلسفة فلاسفة أنكروا الدين ووجهوا النقد اللاذع للكتب المقدسة والأنبياء وأخضعوا تصورات الكتاب المقدس للميتافيزيقا الميكانيكية وتناولوا ما ورد فيها مثل الألوهية والروح وملكوت الله^(١). تناولاً لا رحمة فيه واعتبروا أن كل حديث عن العناية الإلهية أو خلود النفس أو الأخرويات مجرد خرافات لا تستحق النظر لأنها لم تصل بعد إلى درجة التيقن العلمي^(٢).

ووصل الأمر بأحدهم إلى أن يقول إن مطالبة عقل كبير كعقل "شكسبير" بالإيمان بمعتقدات ديانة من الديانات لمي أشبه ما تكون بالطلب إلى عملاق كبير أن يدخل في حذاء قزم من الأقزام^(٣) وانتهى بعضهم إلى إنكار أن يكون المسيح شخصية حقيقية^(٤).

(١) انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة (ص ٣٩٠)

(٢) موسوعة الفلسفة (٦١٧/٢ ، ٦١٨) .

(٣) قائل هذه العبارة الفيلسوف الألماني شو بنهور . انظر كتاب شو بنهور لأندره كريسون ترجمة أحمد كوى (ص ٩٨ ، ٩٩) ، وأيضاً ص (٩٥ ، ٩٩) دار بيروت للطباعة ١٩٥٨ م .

(٤) انظر : تعقيب الإمام الأكبر للدكتور عبد الحليم محمود على كتاب " المسيحية نشأتها وتطورها " (ص ٢٧٤ ، ٢٥٧)

(ب) الديانة الطبيعية : وهذه الديانة تكونت فى الغرب المسيحى ولسان حالها يقول : نشكرك اللهم على نعمتك ولكننا بغير حاجة إليها^(١).

وهذه الديانة جاءت كأثر من آثار الكشوف الجغرافية التى اكتشفت شعوباً كانت لها أديان وأخلاق بالرغم من أنها كانت بمعزل عن المسيحية ونظراً لذلك فقد أنكروا الوحي والرسل والمعجزات ، وحملوا حملة شعواء على رجال الدين^(٢).

وقد حاول دعاة الديانة الطبيعية أن يتوصلوا عن طريق العقل البشرى إلى ديانة طبيعية تعارض الدين المنزل^(٣).

وهذه الديانة تقوم فى المقام الأول على الاعتماد على العقل وأن الله قد غرس فى العقل البشرى ما يجعله كافياً وأن الوحي لا يضيف إليها شيئاً .

فقد ذهب " برت أوف شربورى " إلى أن " كمال الله يقتضى بوجود طريق للخلاص متيسر لجميع الناس أما رسالات الوحي أو الديانات الخاصة فهى بالضرورة جزئية وتفصيلية والله لا يفعل ذلك وأن ما هو ضرورى يجب أن يكون الله غرسه فى عقل الإنسان الطبيعى وجعله متيسراً فى جميع العصور وفى جميع الأزمنة"^(٤).

إن الديانة الطبيعية بدأت مؤمنة تعترف بالله وتدافع عن الوحي^(٥).

يقول أستاذنا الدكتور " يحيى هاشم " بعد عرضه لتطور الديانة الطبيعية ملخصاً موقف العقلين فى أوروبا : " هؤلاء هم العقليون فى أوروبا بدأوا مدافعين عن الوحي المسيحى ، وتوسطوا منكرين له مكتفين بالديانة العقلية الطبيعية وانتهوا إلى اللاأدرية "^(٦).

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ٦)

(٢) قصة الصراع بين الدين والفلسفة (ص ٢٣١) للدكتور توفيق الطويل ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩ النهضة العربية .

(٣) قصة الصراع بين الدين والفلسفة (ص ٢٣١) .

(٤) فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٤٨) .

(٥) انظر : تطور الديانة الطبيعية من الإيمان إلى الإلحاد فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٣٨ - ٤٩)

(٦) انظر : فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٥٨) .

الرد على شبهات الفلاسفة الحديثين في إنكار النبوة عند الماديين والمحدثين :

يكمن الرد على منكرى النبوات سواء الماديين منهم والمؤلهين في أن نعرف الوحي ثم بعد ذلك نتبعه بمدى إمكانيةه . ويدور إثبات إمكانية الوحي حول محورين :

الأول : إثبات إمكانية الوحي في الفكر الإسلامى .

الثانى : إثبات إمكانية الوحي من الناحية العلمية التجريبية .

ونهدف من وراء ذلك أن نقنع الماديين الذين لا يعترفون إلا بما يحس ويشاهد، بما يضطرون للاعتراف به من الناحية العلمية بالرغم أنه لا يخضع للتجربة ولا المشاهدة .

وسوف نقدم نماذج للماديين لما يعترفون به بالرغم من عدم رؤيتهم له، ويعد ذلك نبين مدى حاجة البشر إلى الوحي والرسالة، وأن العقل البشرى يعجز عجزاً كلياً عن بناء أسس أخلاقية وسلوكية تضمن السعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة .

وتتوجه بالحديث حول حاجة البشر إلى الوحي ، إلى المؤلهين الذين يعترفون بالألوهية ، ثم هم ينكرون الوحي ، ادعاء منهم أن العقل البشرى كاف فى سير أفراد الجنس البشرى نحو الكمال بما يضعه من قوانين ونظم .

تعريف الوحي :

يعرف الوحي فى اللغة بأنه " الإشارة، والكتابة، والمكتوب والرسالة، والإلهام ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقىته إلى غيرك ، والصوت يكون فى الناس وغيرهم " (١) . ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا ۖ ﴾ (٢) أى أشار إليهم .

والوحي فى اللغة بمعناه العام يشمل الإنسان، والطير، والجماد والشياطين، فهو لا يختص بأحد دون أحد .

(١) القاموس المحيط (٤/٤٠١)

(٢) سورة مريم الآية (١١) وانظر : مختار الصحاح (ص ٧١٣)

يقول تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۗ ﴾^(١). هذا بالنسبة للإنسان من غير الأنبياء ويقول سبحانه ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ۗ ﴾^(٢) هذا بالنسبة للطير والحشرات ويقول عز وجل ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۗ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۗ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۗ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۗ ﴾^(٣) هذا بالنسبة للجماد .

ويقول سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۗ ﴾^(٤) وهذا بالنسبة إلى الجن والشياطين ، فهذا الوحي كله من الوحي اللغوي .

أما الوحي في اصطلاح الشرع الخاص بالأنبياء والمرسلين فيعرف بأنه " ما يلقيه الله لأنبيائه من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون قد أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالمملك أو بغير واسطة " ^(٥).

ويعرفه الشيخ " الظواهرى " بأنه : " إعلام الله تعالى أنبيائه إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام أو إلهام " ^(٦)

وتكاد التعريفات تجمع على أنه إلهام خفى من قِبَلُ الله إلى واحد من البشر ، يصطفيه الله تعالى ، يصير هذا الإنسان بعد الوحي إليه نبياً أو رسولاً ^(٧).

هذا الإلهام الخفى من الله بأى واسطة يحددها الله ممكن وواقع بالفعل لعدد كبير من الأنبياء خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وستحدث عن إمكانية الوحي عند مفكرى الإسلام ثم بعد ذلك عن إمكانية الوحي من الناحية العلمية التجريبية .

(١) سورة القصص الآية (٧) .

(٢) سورة النحل الآية (٦٨) .

(٣) سورة الزلزلة الآية (١ : ٥) .

(٤) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٥) انظر : تفسير المنار (٥٦/٦) بتصرف .

(٦) التحقيق التام فى علم الكلام (ص ١٦٠) .

(٧) بناء على التفريق بين النبى و الرسول " فالنبوة اختصاص العبد لسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا " والرسالة كالنبوة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ . جوهره التوحيد (ص ١٤٧) .

إمكانية الوحي عند مفكرى الإسلام

تناول مفكرو الإسلام إثبات إمكانية الوحي وجواز اتصال من يصطفيه الله بالملأ الأعلى، وأوردوا أدلة مادية محسوسة تدل على هذا الإمكان، وأبرز من تناول هذه المسألة العلامة "ابن خلدون" فى مقدمته فهو يرى أن العالم بما فيه من المخلوقات على هيئة من الترتيب والإحكام وأول الأشياء التى تلفت النظر عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج هذا العالم؟ صاعداً من الأرض إلى السماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار متصللاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً، فعالم التكوين ابتدأ من المعادن، ثم النبات، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة، ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفى عالم التكوين آثار من حركات النمو والإدراك، تشهد بأن لها مؤثراً مابيناً للأجسام، فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم فى وجودها وذلك هو النفس المدركة والحركة فلا بد قوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لحظة من اللحظات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرئية التى أشرنا إليها سلفاً^(١).

وابن خلدون يدل على إمكانية الوحي واتصال السماء بالأرض عن طريق إنسان يكون هو القمة فى بنى جنسه، ويصل ابن خلدون إلى هذه النتيجة بعد أن

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٤، ٥٥).

رتب الكائنات درجات بعضها فوق بعض، الجماد، فالنبات فالحيوان، فالإنسان، فالملائكة، وهو في هذا الترتيب يضع على رأس كل عالم كائناً تمثل فيه خصائص عالمه في أعلى مقاماتها^(١).

وبعد أن يعرض ابن خلدون إمكانية الوحي ينتهي إلى وقوعه بالفعل لبعض النفوس، يقول: "النفوس البشرية على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية، وهذا نطاق الإدراك البشري الجسماني، وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسيخ أقدامهم.

الصنف الثاني: متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم والمعارف الربانية.

الصنف الثالث: مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللحظات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفساني، والخطاب الإلهي في تلك اللحظة وهي حالة الوحي، فطرة فطرهم الله عليها، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يجازون بها تلك الوجهة^(٢).

وبهذا التقسيم للنفوس يكون ابن خلدون قد أوضح النفوس التي عندها استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الأفق الأعلى في لحظة من اللحظات هي لحظات الوحي.

ولا يفهم من كلام ابن خلدون أنه يذهب إلى أن النبوة تنال بالكسب فهو يصرح في ثنايا كلامه أنها اصطفاء وهبة من الله تعالى^(٣)، ولا مجال فيها للكسب أو

(١) انظر: في مواجهة الماديين والملحدنين (ص ٤٧).

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٥، ٥٦).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٦).

الاجتهاد، وما ذهب إليه ابن خلدون صاغه الأستاذ محمد فريد وجدى فى مناقشته للماديين المنكرين لكل ما لا يقع تحت الحِسّ والمشاهدة وعلى وجه الخصوص الوحي وما يتعلق به.

يقول ما ملخصه: إن مبدع الوجود الذى يصور الكائنات كلها على أى أساليب الإيجاد شاء، لم يقطع إمداده لها طرفة عين، ومما يجب لفت النظر إليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها أظهر ما تكون فى الكائنات الدنيا من الأحياء.

خذ فى يدك بذرة تفاحة وتأملها تجدها تكاد لا تفترق عن الحصة الميتة، فإن قيل لك ولم تكن قد رأيت ذلك من قبل أن هذه البذرة توضع فى الأرض فتنبت ثم تزهر ثم تثمر تفاحاً لكذبت محدثك واتهمته بالازدراء بك، ولكن هذه البذرة حين تغرس فى الأرض وتسقى بالماء تنفجر عن جذير وسويق، الأول يغوص إلى أسفل فى الأرض يتطلب الغذاء ولا يرتفع إلى السطح، والثانى يرتفع إلى السطح متطلباً الهواء والنور، فإن حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع، ثم تأمل: أليس هذا الأمر الذى له علة معقولة يدلك على فعل الروح الإلهى فيه؟ وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعهما لا بد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتهما فى الإنبات، أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف وعلى دفعها لكل عضو فيه؟

وإذا ما تركنا المملكة النباتية وارتقينا إلى المملكة الحيوانية، ونظرنا إلى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهى أبسط ما يمكن تصوره، نجدها مُمتعةً بالعلم الذى يحفظ وجودها ويصون نوعها وبالمحاولات التى لا غنى لها فى الدفاع عن أنفسها وفى الاحتيال للخلاص من أعدائها، فمن أين أتى هذه الكائنات هذا العلم وهى محرومة من الأعصاب ومن المخ معاً؟ أليس هذا العلم لديها إلهاماً من خالق الوجود نفسه؟

أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى فى معمعان هذه الهيجاء الحامية التى تشنها الطبيعة بعواملها المختلفة لولا هداية الرحمة الإلهية لها وعملها المباشر على صيانتها وإرشادها إلى وجوه نجاتها؟

ولقد وصلنا إلى الإنسان، فهل يتلقى مدداً من الإلهام الإلهي على نحو ما يتلقاه النبات والحيوان؟ أما المدد الجسماني فلا يمكن التشكك فيه فإن الإنسان يبصر ولا يدري ما يحدث في بلورية عينيه من التحذب والانبساط على حسب أبعاد المرئيات، ويأكل ويهضم وهو غافل عما يحدث في أحشائه من التحليل والتركيب والتصفية والتصعيد، فمن الذى يدير كل هذه الأجهزة الدقيقة؟ ومن الذى يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى مايقومها ويصلحها؟

هذا حال الجسد، فهل يتلقى الروح مدداً عقلياً من العلم الإلهي؟ لقد رأينا الحيوانات تلهم ما تعلمه إلهاماً، وكل فرد منها يلهم ما يصلحه إلهاماً فيكرر العمل الذى كان يعملُه نوعه منذ وجد على الأرض.

فلما وجد الإنسان وكان قريباً من الحيوان فى سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده تولاه الوحي لا من طريق الإلهام والسوق، ولكن من الطريق التعليمي، ما دام قد استأهل هذه المرئية فيولد الإنسان مجرداً من كل علم وحيلة فيهديه أبواه وقبيلته إلى وجوه العمل، فأصبح للوحي سبيل خاص بالإنسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضى الحق سبحانه بما يجب أن يعلمه الكافة ويعلنوا به إلى واحد منهم فيقوم بنشره بين معاصريه من نوعه.

وهذا هو الذى حدث بالفعل، فإن الإنسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار وما نقشه على الأحجار بأن أحاداً منه كانوا يتلقون الوحي فى أحوال خاصة من حياتهم فينشرونه فى قبيلتهم تحت اسم ملة أو ديانة، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه.

فإذا كان هذا التواتر لا يكفى فى إقناع الآخذين بالفلسفة الحسية بحجة أن أولئك الأقوام فى جهالتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحياً. قلنا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن للإنسان وهو يجتاز دور الحيوانية (عفواً) فالخطاب لأهل الفلسفة الحسية، لا يعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الإلهام الحيوانى الذى تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود، ولكن الذى يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجياً حتى لا تعى عليه وجوه الحياة فيبيد، وعند تمام تميزه

عن العالم الحيوانى كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطوراً ذريعاً قابلة للاتصال بالروح الإلهى من طريق روحانى محض.

وقد يقول قائل: ما معنى اتصالها بالروح الإلهى من طريق روحانى؟ أليس هذا من تشبيه الماء بعد الجهد بالماء؟

نعم هو كذلك لدى من اكتفى من العلم بما تلقاه فى الكتب المدرسية المحدودة، ولكن منذ أن أعلن الدكتور الألمانى "سمر" بأنه اكتشف سيالاً حيويًا فى الإنسان أسماه المغناطيس الحيوانى، وقد ثبت أخيراً وصار فى عداد البديهيات لدى الباحثين بأن فى باطن كل منا عقلاً مستقلاً غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالاً منه، هذا العقل الباطن الذى لا يحس الإنسان بوجوده متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالاً مباشراً، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الإلهام، فهل يعقل أن لا يصل هذا العقل الباطن فى بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح الإلهى شريعة جديدة إلى شعب هو فى حاجة إليها؟ كيف يعقل خلاف هذا؟ وهو الذى حدث فعلاً فى كل أمة وفى جميع أدوار التاريخ فلم تحل الأرض قط من داع إلى الحق، وإلى الفضائل، مدعيًا أنه أرسل لأداء هذه المهمة إرسالاً، فتراه يعرض نفسه للهلكة فى سبيل تعميم دعوته، ويصبر على البأساء والضراء، متبعاً سمات الصالحين من الزهد فى الدنيا، والتواضع وإيثار الفقر، حتى ينجح فيما تصدى له، أو يقتل فى سبيله.

فإذا كان من الناس من ينكر هذا وينكر أن فى الإنسان حياتين: حياة عادية وحياة روحانية يجلبها التنويم المغناطيسى، ولا يعترف بإمكان اتصال السماء بالأرض بالوحى لمن يصطفيه الله تعالى، هؤلاء أمة وحدهم وليس يضير الحقائق أن يجافىها عدد محصور من الحسين الماديين الجامدين على ما هم عليه.

وقد اضطررنا لتلخيص رد الأستاذ "محمد فريد وجدي" على طوله نظراً لوضوح فكرته وقوة براهينه.

ومن تناولوا إثبات إمكانية الوحى الشيخ "محمد عبده" يذكر فى رسالة التوحيد أنه لا استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم بأن ذلك من واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها

بعضاً وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط، بل لابد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، ولا شك في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه، ولا تزال المراتب ترتقى في ذلك إلى ما لا يحصره العدد، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده، فيسعى إليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايتها، ثم يألفون ما صار إليه، كأنه من المعروف الذي لا ينازع، والظاهر الذي لا يجاحد، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الأمر على من دعاهم إليه، فمن ضعف العقل أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمور الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعلقه بالدليل والبرهان، وتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم^(١).

كل هذه الأدلة العقلية تدل على إمكانية الوحي وأن الله عز وجل المتحكم في الكون وما يجري فيه، قادر على أن يصطفى من خلقه من يكون أهلاً لاتصال السماء به والوحي إليه بما يضمن للناس سعادتهم في الدنيا والآخرة، وكما يذكر الأستاذ "العقاد": فإن الغيب غير مستحيل، والعلم به لا يدخل في باب المنوعات أو غير المعقولات وإذا كان عنصر العقل في هذه الأكوام أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول.

وإذا كان العقل البشري لا ينفى بالدليل المقنع وجود العقل الأبدى فليس له أن يجزم باستحالة شيء بما يستطيعه ذلك العقل الأبدى بالأبد كله، أو من القدرة على الإيحاء به إلى من يشاء أو من القدرة على خوارق العادات، لأن الخوارق بالنسبة إليه كالعادات، ولأن التغيير عنده كالإنشاء والإبداع^(٢).

(١) انظر بتصرف رسالة التوحيد (ص ١١٠ - ١١٢).

(٢) انظر: التفكير فريضة إسلامية (ص ٨٨).

إمكان الوحي من الناحية العلمية التجريبية:

ذكر العلماء المحدثون وجوهاً عديدة لإمكانية الوحي، وتدور هذه الوجوه حول وجود عدد كبير من الحقائق العلمية التي لا ترى ولا تشاهد ومع ذلك يتعامل معها الماديون.

يقول الأستاذ "وحيد الدين خان": إن هناك وقائع كثيرة جداً تجرى من حولنا في كل لحظة ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها، أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك^(١).

وهذه الوقائع لا ينكرها الماديون بالرغم أنها تقع على شرطهم وهو عدم الاعتراف إلا بما يحس ويشاهد، والسؤال هو لماذا اعترفهم بهذه الوقائع وتعاملهم معها، وعدم إيمانهم بقضايا الغيب ومنها الوحي؟

إن هناك كثيراً من الغيبيات يعترف بها العلماء نذكر منها:

أ - الإشراق والكشف:

يذكر الدكتور "هيروشي موتوياما" مدير معهد علم النفس الديني بطوكيو أن قدرة بعض الأشخاص أو بتعبير أدق بعض الأجهزة العصبية لبعض الأفراد على إشعاع ما يطلق عليه حديثاً قدرة كشفية خاصة قد أصبحت في متناول الاختبار والقياس بواسطة بعض التجهيزات الكهربائية الخاصة^(٢).

أى أن الأمور التي لا تخضع للملاحظة قديماً أصبحت الآن خاضعة للتجربة بواسطة الأجهزة الحديثة.

يقول "وحيد الدين خان": "قد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات وإنما توجد في الإنسان بالقوة، إن حدود الفرد في إطار

(١) الإسلام يتحدى (ص ٩٦).

(٢) نقلاً عن "في مواجهة الإلحاد المعاصر" (ص ١٧٩، ١٨٠).

الزمان والمكان هي مجرد افتراض فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام وتضحك أو تبكى كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر لست على علم بها إن أى عملية لا تستعمل فيها أية وسيلة لا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه" (١).

ولهذا لا يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربّه مع الفارق بين قدرة الله وقدرة البشر، إن الإنسان بعد هذه التجارب لا يجد أساساً لإنكار الوحي والإلهام وليس أمامه إلا الإيمان بالله والوحي.

[ب] العقل الباطن:

لقد اكتشف العلماء قوة غيبية في جسد الإنسان هذا العقل هو الذى يدير جسد الإنسان ويتصل اتصالاً مباشراً بالحياة الروحانية.

يذكر الأستاذ "محمد فريد وجدي" أن العالم منذ سنة ١٧٧٠م أى منذ أن أعلن الدكتور الألماني "مسمر" بأنه اكتشف سيالاً حيويًا فى الإنسان أسماه المغناطيس الحيوانى وهو جاهد فى تحقيق وجود هذا السيل ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعى الذى ثبت أخيراً وصار فى عداد المعارف الأولية لدى الباحثين بأن فى باطن كل منا عقلاً مستقلاً غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالاً منه، هذا العقل هو الذى يتصل بالعالم العلوى وتحدث عن طريقه ظاهرة الأحلام التى لا يستطيع العلم أن يفسر حدوثها وهذا العقل الباطن الذى لا يحس الإنسان بوجوده متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالاً مباشراً، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ويحاول أن يعكس على صاحبه من طريق الإلهام، فهل يعقل أن لا يكون هذا العقل الباطن قد وصل فى بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح الإلهى لإيصال شريعة جديدة إلى أناس هم فى حاجة إليها" (٢).

[ج] المؤثرات الحيوية غير المحسوسة :

إن هناك مؤثرات على الإنسان والحيوان غير محسوسة ولا مشاهدة، ولكنها أصبحت فى عداد الحقائق نظراً للتسليم بها من عدد كبير من العلماء.

(١) الإسلام يتحدى (ص ٩٧).

(٢) الإنسان دين عام خالد (ص ٩٣).

يقول الأستاذ "بورى خلوؤف" الأخصائى فى وظائف الجهاز الفسيولوجى العصبى: عندما يطرح التساؤل عن احتمال وجود شيء يؤثر على الكائنات الحية دون أن تدركه حواسها يتبادر إلى الذهن مثال المجالات الكهرومغناطيسية، فمن الناحية التطورية نجد أن الإنسان قد تكيف بحيث تستطيع أعضاؤه الحسية المتخصصة إدراك قطاعين متجاورين فقط من بين المدى الكلى للذبذبات الكهرومغناطيسية، فكلنا على دراية بتلك المجالات التى نحسها فى شكل حرارة أو ضوء.

أما ما يجمع بين كل المجالات الكهرومغناطيسية فهو أثرها المخترق وعدم إثارتها لأى إحساس خاص بها لدى الإنسان مما يجعلنا نستنتج أنها تؤثر على الإنسان بطريقة غير محسوسة، ويذكر عن إمكان نقل المعلومات عن طريق المجالات المغناطيسية بأننا سوف نكتشف أيضاً كيف يستطيع شخص معين نقل معلومات إلى شخص آخر عن طريق واع لمجالاته الكهرومغناطيسية الحيوية .

ولا يقتصر مجال التأثير الكهرومغناطيسى على الإنسان، بل يؤثر على هذا النشاط فى سلوك الطير والحيوان والأسماك والنبات، فالمجالات الكهرومغناطيسية واحدة من بين عدة وسائل تستخدمها الطيور للاستهداء، ولذلك فالواجب أن نأخذ هذه المقدرة فى اعتبارنا عن كيفية تعرف الطيور على طريقها، ويصدق هذا القول أيضاً على استهداء الأسماك والحشرات والحيوانات الأخرى، بل يصدق كذلك على النبات^(١).

كل هذه الأمثلة يتعامل معها الماديون باسم العلم بالرغم من عدم رؤيتهم لها، ونحن نقول إن الوحي كهذه الظواهر، لا يُرى، ولكن آثاره تظهر على الأنبياء والرسل الذين يختارهم الله لتبليغ وحيه إلى أممهم.

وقد تكرر اختيار الله للأنبياء والرسل فى الأزمنة المختلفة منذ بدء الخليقة، وكان آخر الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلا مجال إذن لإنكار الوحي وسائر الغيبيات بناءً على عدم وقوعه تحت التجربة بعد الذى قدمناه من النماذج الملزمة للماديين.

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ١٥٠ - ١٥٢) نقلاً عن العلم والظواهر الخارقة (ص ٢٦ - ٣٠).

تعقيب على إنكار الماديين وأصحاب الديانة الطبيعية للوحى والنبوة

أولاً: الفلسفة المادية:

إن الفلسفة المادية يجب أن يوجه النقد إليها فى الأصل الأول الذى أنكرته وهو الألوهية، وقد فندنا شبه الماديين على اختلاف أزمته وأمكتهم، وهنا ناقش الماديين فى إنكارهم للنبوات، ولا بد من بيان أن ما حدث من الماديين فى نقدهم للكتب المقدسة وعدم صمود هذه الكتب أمام النقد العلمى كان خاصاً بالعهد القديم والعهد الجديد.

أما القرآن الكريم فإنه:

أولاً: لا يخضع لمناهج النقد التى يطبقها العلماء فإن الإلهى لا يخضع للبشرى.

نقول ذلك لاعتقادنا أن القرآن الكريم لم يبدل ولم يحرف كما حدث فى العهد القديم والعهد الجديد.

ثانياً: أن المشاكل التى أثرت فى العهد القديم والعهد الجديد لا مثيل لها فى القرآن الكريم، ولعل الدراسة التى أجراها العالم الفرنسى "موريس بوكاي" خير شاهد على هذا^(١)، أما تمسكهم بالعقل وما يقرره فذلك غرور، فإن العقل الذى يغترون به لا يعلم شيئاً عما وراء الحياة الدنيا، بل إن تلك الحياة نفسها لا يعلم العقل عنها إلا الظاهر فقط، كما قال تعالى ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) انظر الدراسة الشاملة، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاي، الناشر: دار المعارف.

(٢) سورة الروم الآية (٧).

والذى يبدو جلياً أن وقوف منكرى النبوة والألوهية هذا الموقف الراض لكل ما هو دينى كان انتقاماً من الكنيسة ومن رجال الدين فى أوربا، فإن الفلاسفة لم ينسوا ما فعل بأقرانهم إبان عصر النهضة من قتل وحرق، ولهذا عندما أخذت سلطة هذه المحاكم فى التقلص والتضاؤل وفقد البابا قوته وسلطانه، انطلق الناس نحو المادية والإلحاد كرد فعل للممارسات التى مارستها محاكم التفتيش^(١). وما حدث فى أوروبا ضد العلم حدث ضده فى المجتمع الإسلامى، فقد شجع الإسلام وشجع الحكام كل اتجاه عقلى يهدف إلى استغلال ما استودعه الله فى كونه، وشجعت الدراسات التى تقوم على التجارب، ففرق كبير بين ما حدث فى أوروبا، وما حثَّ عليه الإسلام ونادى به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن يبدو أن البغض للشيء يعمى الإنسان عن كل شيء.

فلأن القضايا التى فى الكتاب المقدس لا تخضع لمعايير النقد العلمى رفض الماديون النبوة من أساسها، وكان الواجب عليهم أن يبحثوا عن المصدر الصادق المتمثل فى القرآن الكريم.

ثانياً: الديانة الطبيعية:

إن أهم المآخذ عليها:

أولاً: أنها حين رفضت الديانة الموحى بها من الله فقد ارتضت ديانة من وضع البشر، وكان عليهم بدلاً من أن يرفضوا الوحى أن يبحثوا عن الرسالة الخاتمة التى لم تُبدل ولم تُحرف، والتى فيها إجابة عن كل التساؤلات التى من الممكن أن يطرحها العقل.

ثانياً: أن هذه الديانة تخلو من التفاصيل^(٢). اللازمة لاستمرار الدين، وهذه التفاصيل تتمثل فى الأوامر والنواهى التى لا يقوم بها العقل فلا بد من وحى معصوم يقوم بهذه المهمة ويرشد الناس إلى ما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم، وبالجملة يرشدهم إلى السعادة فى الدارين.

(١) الله خالق الكون (ص ٦٢٩ - ٦٣٠) أ. جعفر الهادي، الناشر: دار الأضواء، بيروت لبنان.

(٢) انظر عصر الألحاد (ص ٦٧، ٦٨).

ثالثًا: أن القول بأن الإنسان يخضع للوحي الداخلى من نفسه قول لا ينضبط، فمن الذى يضمن ألا تتدخل الأهواء وحب الزعامة والجاه والسلطان من ادعاء أشياء تتعلق بالإنسان ورغباته وشهواته.

رابعًا: أن الإنسان ما دام بعيدًا عن سلطان خارجى يتمثل فى الوحي فهو عرضة للانزلاق إلى الكفر والإلحاد مادام لا يخضع لضابط يضبط تصرفاته، اللهم إلا عقله، وما يثبته العقل اليوم ينفيه غداً، أو ما يراه مناسباً فى الغد قد لا يكون مناسباً بعد غد، وهذا بعينه ما حدث، فقد انتهت الديانة الطبيعية المتحللة من الوحي إلى إنكار وجود الله مع النبوة، وهذا ما كان إذ لا يمكن أن يتمرد الإنسان على هدى الله ويوفقه الله.

خامسًا: يجب ألا ننسى أن هذه الديانة نشأت كرد فعل لما فعلته الكنيسة بالعلماء، وما فرضته عليهم باسم المسيحية مما لا يتفق مع العلم ولا مع الدين الحقيقى الذى جاء به السيد المسيح عليه السلام.

سادسًا: أن المشكلة التى وقع فيها الإلحاد الأوروبى أنه لم يفرق بين ما هو من البشر وما هو من الله، فإن الأوروبين نفروا من النبوة والأنبياء بناء على التفسيرات الخاطئة التى مارسها علماء اللاهوت من النصارى، ويبدو أن الذين نفروا عن الدين لم يكونوا فى حالة نفسية تسمح لهم بالبحث والتأنى لفرز الحق من الباطل، وإلغاء الباطل واتباع الحق، وإنما كانوا كالمسوع الذى يصيح هاربًا من كل لمسة ولو كانت لمسة الدواء، ويسبب ذلك التاريخ الفاسد قامت الحضارة الأوروبية على أساس تداو للدين نافر منه منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصور أو سلوك^(١)، لكن إذا كان هذا قد وقع فى الغرب بسبب التصورات الفاسدة فى المسيحية.

فهل وقع هذا فى الإسلام؟

الحق الذى شهد به القاصى والدانى أن الإسلام بمصدره الكتاب والسنة، شاهدان على تكريم الإنسان فى كل فترة من فترات حياته منذ المولد حتى الممات،

(١) دراسات فى النفس الإنسانية (ص ٢٢٩).

وشمولية الإسلام قضت على الانفصام بين مطالب الجسد والروح الذى يصطلى به أتباع الأديان الأخرى.

ونصوص القرآن الكريم والسنة ورد فيهما ما يلبي حاجات الإنسان الضرورية من مأكّل ومشرب وملبس وتعلم إلى كمالياته من أخذ الزينة والتمتع بطيبات الله التى ما خلقت إلا من أجل الإنسان الذى استخلفه الله وأطلق له العنان فى الكشف عن سنن الله فى الكون.

أما فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه، فإن القرآن الكريم، وكذا السنة يرفضان رفضاً تاماً أى وساطة بين الإنسان وبين ربه، يقول تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(١)، وهذا بخلاف ما فعله اليهود والنصارى مع رهبانهم وأجبارهم.

(١) سورة غافر الآية (٦٠).